

محاضرات ١٢

علم اللُّغة الاجتماعي في الوطن العربي (محاور ونظريات)

أ. د. ريم بسيوني

مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي
لخدمة اللغة العربية
King Abdullah Bin Abdulaziz Int'l Center for
The Arabic Language

محاضرات ١٢

علم اللُّغة الاجتماعي في الوطن العربي
(محاور ونظريات)

ا. د. ريم بسيوني
أستاذ ورئيس قسم اللُّغويات التطبيقية بالجامعة الأمريكية

١٤٤٠هـ - ٢٠١٨م





علم اللُّغة الاجتماعي في الوطن العربي

(محاور ونظريات)

الطبعة الأولى
١٤٤٠ هـ - ٢٠١٨ م

المملكة العربية السعودية - الرياض
ص.ب ١٢٥٠٠ الرياض ١١٤٧٣
هاتف:٠٠٩٦٦١١٢٥٨٧٢٦٨ - ٠٠٩٦٦١١٢٥٨١٠٨٢
البريد الإليكتروني: nashr@kaica.org.sa

مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ١٤٤٠هـ.
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
بسيوني، ريم
علم اللغة الاجتماعي في الوطن العربي : محاور ونظريات./ ريم بسيوني؛ - الرياض، ١٤٤٠هـ
..ص؛ .. سم
ردمك: ٣ -٢٧ -٨٢٢١ -٦٠٣ -٩٧٨
١ - علم الاجتماع اللغوي أ. العنوان
ديوي ١٩, ٤٠٠ ١٢٠٥/ ١٤٤٠
رقم الإيداع: ١٢٠٥/ ١٤٤٠
ردمك: ٣ -٢٧ -٨٢٢١ -٦٠٣ -٩٧٨

التصميم والإخراج
دار وجوه للنشر والتوزيع
Wojooh Publishing & Distribution House
www.wojoooh.com
المملكة العربية السعودية - الرياض
الهاتف: 4562410 الفاكس: 4561675
للتواصل والنشر:
info@wojoooh.com


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

علم اللُّغة الاجتماعي sociolinguistics مَعْنِيٌّ بعلاقة اللُّغة بالمجتمع، وتأثير كلٍّ من اللُّغة والمجتمع على الفرد وهويته. ينقسم هذا العلم لأكثر من ستة أقسام، كلها معنية بهذه العلاقة المتشابكة من عدة جوانب. ومن أبرز أقسام علم اللُّغة الاجتماعي: ازدواجية اللُّغة dilgossia، وتحويل الشفرة اللُّغوية Code switching، واللُّغة المبسَّطة واللُّغة المهجنَّة Pidgin and creale، والمقومات الاجتماعية واللُّغة Sociolinguistic variables، وسياسة اللُّغة والتعليم Language policy and education، واللُّغة والسياسة Language and politics، واللُّغة والإعلام Language and the media.

في الصفحات القادمة سنبدأ الحديث عن نشأة هذا العلم الحديث نسبيًّا، وأسباب هذه النشأة وموطنها، ثم نتطرق لبعض طرق البحث والنظريات التي أثرت في هذا العلم على مرِّ الأعوام. بعد ذلك سنركِّز على موضوعين مهمين في هذا العلم، وهما ازدواجية اللُّغة وتغيير الشفرة، وسنوضح نظريات هذين الجانبين بالأمثلة والشرح من العالم العربي بالذات.

وبعد ذلك في الفقرة سنناقش قضية اللهجات العربية وعلاقتها بالفصحى وعلاقتها ببعضها، ثم نناقش بالأمثلة محورًا مهمًّا من محاور علم اللُّغة الاجتماعي، ألا وهو سياسة اللُّغة وعلاقتها بالتاريخ السياسي للدول في الوطن العربي، وسنختم الكتاب بعلاقة الأيديولوجيات بتداعيات اللُّغات واللهجات في الوطن العربي من خلال استعراض بعض الأمثلة والنظريات.

بداية العلم وأسباب نشأته:

نشأ علم اللُّغة الاجتماعي في أمريكا وإنجلترا في الستينيات من القرن العشرين على يد بعض الباحثين المعنيين بالقضايا الاجتماعية إلى حد كبير، والمتأثرين بالحركات الاجتماعية في تلك الفترة. وأهم هؤلاء العلماء هو وليام لابوف Labov W. العالم الأمريكي الذي يُعَدُّ رائدَ علم اللُّغة الاجتماعي من حيث النظريات وطرق البحث.

لابوف وغيره من علماء اللُّغة الاجتماعيين اهتموا بدراسة علاقة اللُّغة - بوصفها مُتغيِّرًا- بالمقومات الاجتماعية المختلفة، فمثلًا في كل اللُّغات هناك متغيرات صوتية وتركيبية ودلالية، وهذه المتغيرات على علاقة وطيدة بالمقومات الاجتماعية، كالطبقات الاجتماعية مثلًا، أو التحول من مجتمع بدوي أو ريفي إلى حضري، أو تغيير المكان والزمان، أو التغيرات الاجتماعية المبنية على أساس النوع، الرجل والمرأة، أو السن، أو الرباط الاجتماعي.

قام لابوف بأكثر من دراسة تطوّر على أساسها علاقة تغير اللُّغة بالمقومات المجتمعية. وقد أكَّد لابوف أن دراسة تغير اللُّغة عبر السنين، التغير الزمني لابد أن يكون عن طريق دراسة وشرح التغير الذي يطرأ على اللُّغة الآن، أو عبر أكثر من جيل من متحدثيها.

ومن أهم إنجازات لابوف وغيره من العلماء، تعريف المتغير اللُّغوي ودراسته دراسة تعتمد على الكم وليس الكيف. والمتغير اللُّغوي يمكن تعريفه على أنه: مكون- عادة- صوتي، يرتبط وجوده ليس فقط بتركيبة الكلمة أو الجملة ولكن بعوامل خارجية وليست لغوية. (Labov 1972 ,١٠ :Milroy 1987)

وضَّح لابوف في دراساته أن وجود نمط في استعمال المكون اللُّغوي، مثلًا، في طريقة نطق حرف القاف كـ (ج) في بعض اللهجات، وكـ همزة في لهجات ثانية، وكـ (كاف) أو (ق) في لهجات ثالثة، هذا النمط لا ينمُّ عن وجود تغير قوي قادم على هذا المتغير اللُّغوي، مع العلم أن اللُّغة دومًا تتغير وتنمو ولكن بسرعات مختلفة. أما إذا اختفى النمط المتوقع، وأصبح استعمال المتغير الصوتي غيرَ متوقعٍ أو متعارضًا أحيانًا؛ فهذا ربما يوحي بوجود تغير في المتغير الصوتي في هذا المجتمع.

وقد قام لابوف بعدة دراسات مهمة أرست قواعد علم اللُّغة الاجتماعي، منها: دراسة نيويورك الشهيرة، ودراسة جزيرة مارثا في بوسطن.

الدراسة الأولى كانت في نيويورك، وفي هذه الدراسة ركَّز لابوف على المتغير الصوتي وطريقة نطق ال (ر) في مدينة نيويورك، واختار طريقة مبتكرة لمعرفة هذا، وهي أن يذهب إلى أكثر من سوق تجارية كبيرة ذات طوابق عدة مرتبطة بطبقات اجتماعية مختلفة، فمثلًا: ذهب إلى سوق تجارية يرتادها الأغنياء ومرتبطة بالطبقة الغنية جدًّا في نيويورك، وأخرى مرتبطة بالطبقة الأقل، وثالثة معروف أنها رخيصة ومرتبطة بالفقراء، ثم سأل عاملة على الكاشير في كل مرَّة عن شيء موجود في الطابق الرابع ليستمع لنطق العاملة لحرف ال (ر) في كل محل، ووجد لابوف علاقة وطيدة بين تعريفه للطبقات المجتمعية ونطق هذا الحرف، فقسَّم المدينة إلى طبقات اجتماعية على أساس مكان السكن، والدخل، والتعليم، إلى آخره.

وفي دراسة أخرى، درس لابوف التغيرات اللُّغوية التي طرأت على المجتمع في جزيرة مارثا في بوسطن بعد تحوُّل سكانها من صيادين إلى عاملين في السياحة، وانفتاحهم على العالم الخارجي، بعد أن كانت مارثا جزيرة منعزلة، وبالطبع توقَّع لابوف أن يحدث تغيُّر لغوي.

تطور علم اللُّغة الاجتماعي على يد رواد العلم الأوائل، أمثال: ميلروي Milroy، وميلروي وإيكرت Eckert. ميلروي طوَّرت نظرية الطبقات الاجتماعية، وأدخلت عليها أهمية التشابك الاجتماعي المبني على «المنطقة المحلية» (local area)، وأهمية منطقة المعيشة في الاستقرار اللُّغوي (Milroy social networks approach) 1987). وبعد ميلروي طوَّرت إيكرت وغيرها علم اللُّغة الاجتماعي عن طريق نظرية «مجتمع الممارسة» (community of practice) (Eckert 2006). وهذا المجتمع يعتمد على وجود أفراد يعترفون بانتمائهم لجماعة معينة بينها مقومات مشتركة معترف بها بين الأعضاء، مثلًا: جماعة تتقابل يوميًّا لحفظ القرآن، أو لعب الشطرنج، إلى آخره. وفكرة إدراك الفرد لهوية اجتماعية سياسية أو فردية فكرة مهمة في علم اللُّغة الاجتماعي، كما سيتضح لاحقًا.

قبل الاستفاضة وتوضيح تطوُّر العلم، أريد أن ألقي الضوء على طرق البحث التي طورها لابوف وغيره:

طرق البحث المتعارف عليها لدراسة المتغير اللُّغوي:

اعتمد لابوف على طُرق مختلفة في جمع مادته العلمية، وتكلَّم لأول مرة عن تحديات الباحث في أن يسجِّل طريقة الكلام التلقائية لأي فرد في مجتمع، إذ إن وجود الباحث ووجود جهاز تسجيل يحولان دون تلقائية الكلمات، ويبقى وجوده عائقًا بالنسبة للمتكلم لدرايته بأن كلماته مسجلة، أو أنَّ أحدًا يتابعه طوال الوقت. هذا ما يُسمَّى «التناقض في أهداف وطرق الباحث» (observer's paradox).

وكان لابوف أحيانًا يطلب من المتكلم أن يقرأ مقطعًا أو كلمات متشابهة، على أن يكون الاختلاف الوحيد بينهما في حرف واحد (minimal pairs), مثل: طين، وتين.

الحوار والدراسات الاستقصائية يتم استعمالهما أيضًا في جمع المادة العلمية للدراسات. وأدخلت ميلروي وغيرها فكرة الأثنوجروفي، والاهتمام بدراسة المجتمع والعيش بداخله بوصفه عضوًا فيه قبل إتمام الدراسة، وفهم المقومات الاجتماعية لأي مجتمع عن طريق محاولة الباحث أن يكون جزءًا من هذا المجتمع، والعيش بين أفراده لوقت طويل.

وأدخلت إيكرت وغيرها فكرة أيديولوجية الأفراد وأهميتها في جمع المادة العلمية، فأصبحت فكرة الفرد عن هويته وبيئته ومجتمعه مهمة جدًّا، حتى وإن لم تكن مضبوطة في أغلب الأحوال.

المحاور الحديثة لعلم اللُّغة الاجتماعي:

كما سبق وأشرنا، تطوَّر العلم على يد ميلروي ثم إيكرت وغيرهما حتى توصل العلماء حديثًا لأهمية الهوية في طرق الكلام، وأهمية مجتمع الممارسة، وموقف الفرد من بيئته ومجتمعه، حتى أصبح الآن التأكيد على الأهمية الدلالية للمتغير اللُّغوي وليس فقط الأهمية الاجتماعية، وظهرت نظريات مهمة في فهم المتغير اللُّغوي، منها نظرية «الدلالية» (indexicality) (Silverstein 2003; Ochs 1992).

وهي فكرة الأهمية الدلالية. وفكرة الأهمية الدلالية مبنية على فهم السياق الذي يُستنبط منه المعنى، وهذا السياق هو نتاج نظام اجتماعي وأيديولوجي نشأ فيه أفراد المجتمع، وأصبح لازمًا عليهم فَهْم معين للمكونات اللُّغوية والاجتماعية، فمثلًا، هناك ارتباط بين لهجة الصعيد في مصر وبيئة محلية معينة. عندما يسمع القاهري اللهجة الصعيدية يستنبط بعض المقومات الاجتماعية ذات الدلالة لديه، المبنية على المكون

الأيديولوجي لديه، والمبنية عن فكرته هو ونظريته عن هويته داخل السياق البيئي الذي يحيا فيه.

هذا السياق هو نتاج تراكمات أيديولوجية للفرد ناتجة عن تفاعله مع مدرسته وبيئته الاجتماعية والسياسة والإعلامية والأسرية، وحتى أصدقائه ومكان عمله، فتبعًا لهذه النظرية يصبح الفرد ذا هوية اجتماعية وسياسية وفردية مكونة من نتاج تعرضه لأيديولوجيات بيئته وأعضاء مجتمعه، وسيتم توضيح هذه النظرية بالأمثلة لاحقًا.

وكما أثبت الباحثون في دراستهم، أمثال واداك، أن الفصل بين الهوية الفردية والسياسية والاجتماعية للفرد مستحيل، فالهوية هي نتاج كل العوامل الاجتماعية والسياسية المحيطة بالفرد، وتستطرد بسيوني فتعرف ثلاث ركائز للهوية تساعد على فهمها. تقول بسيوني: إنَّ الهوية تعتمد على الإدراك؛ إدراك الفرد لنفسه، وإدراك الآخرين لماهيته، وهذا الإدراك يمكن أن يختلف، ويكون به تناقض بين إدراك الفرد لنفسه وإدراك الآخرين له. مثلًا، فكرة كون المصري ذا هوية عربية، أو إسلامية، أو وطنية مصرية، أو الثلاث معًا.

والعامل الثاني هو العقيدة، وهي موقف الفرد من القضايا ونظرته لسياقه الاجتماعي والثقافي، فمثلًا، بعض الأفراد ربما يرفض محيطه الثقافي والسياسي، وبعض الأفراد ربما يعيد طرح المنظور التاريخي الذي تُبنى عليه هوية مجتمعه، إلخ.

وثالث عامل هو عامل الممارسة والعادات؛ فلكل فرد عادات يومية، ولكل مجتمع ممارسات سلبية وإيجابية تمثل هوية هذا المجتمع. كما قالت بسيوني: الهوية ممارسة وأيديولوجيا وإدراك ("identity is perceptual, ideological, and habitual") (Bassiouney 2014).(Bassiouney 2014)

لفهم الأهمية الدلالية للمتغير اللُّغوي، لابد أولًا من فهم الأيديولوجية اللُّغوية السائدة التي لا يمكن الوصول إليها فقط عن طريق تسجيل أحاديث تلقائية لمتكلمين وربط اللُّغة بالمقومات المجتمعية، بل لابد لنا من الاهتمام بالإعلام ووسائل الإعلام الجديدة للتواصل الاجتماعي، وموقف الفرد من مجتمعه وبيئته ووطنه، فأصبح موضوع الهوية ودور الفرد فيها من المواضيع المهمة.

وأصبح النظرة حاليًّا لعلاقة اللُّغة بالمجتمع نظرة شمولية، لا تفرق بين المتغير اللُّغوي والمقومات الاجتماعية، بل أصبح النظر للغة بوصفها مُقوِّمًا اجتماعيًا، مثلها

مثل الملبس أو الشكل أو مكان السكن. أصبحت اللُّغة مصدرًا وجزءًا لا يتجزأ من نسيج هوية الفرد الاجتماعية؛ ولذا لزم عدم دراسة اللُّغة فقط عن طريق ربطها بمقوم اجتماعي، كاللون والجنس والبيئة الاجتماعية والحضر والريف؛ بل لزم النظر إلى اللُّغة بوصفها مصدرًا يتفاعل ويتغير بتغير المجتمع، فهي من نسيجه.

الحركة الجديدة في علم اللُّغة الاجتماعي لا ترى فقط ارتباطًا بين المتغير اللُّغوي والمقومات الاجتماعية والثقافية، بل ترى أن اللُّغة نفسها متغيرٌ اجتماعي ومصدر اقتصادي وتاريخي وتراثي، مثلها مثل طريقة الملبس والمظاهر الأخرى للفرد؛ من شراء سيارة، أو عمل، إلى آخره. التغيرات الاقتصادية تعني أن هناك توزيعًا غيرَ متساوٍ لمصادر المجتمع، وأصبحت اللُّغة أحد هذه المصادر. لذا- مثلًا- أصبح تعلم اللُّغة الإنجليزية نوعًا من أنواع التباهي بالاستحواذ على مصدر اقتصادي واجتماعي مهم. لا تزال قضايا الهوية والأيديولوجية اللُّغوية والسياسة اللُّغوية تشكِّل جوهر السياق الاجتماعي-السياسي للعالم العربي.

الازدواجية اللُّغوية:

عرض عام لدراسة الازدواجية اللُّغوية:

تُوصف البلدان العشرون التي تُعدُّ اللُّغة العربية لغتها الرسمية، بأنها مجتمعات ذات ازدواجية لغوية، أي مجتمعات يوجد بها مستويان من لغة واحدة يُستعملان جنبًا إلى جنب. وتكون اللُّغة الرسمية للبلد اللُّغة العربية المعاصرة[1] عادةً، غير أنه يوجد عادةً في مقابلها لغة دارجة منطوقة- واحدة على الأقل في كل بلد - تحظى بمكانة مرموقة.

إسهامات فرجسون في دراسة الازدواجية اللُّغوية:

فيما يلي تعريف فرجسون للازدواجية اللُّغوية:

> الازدواجية اللُّغوية هي موقف لغوي يتسم بالثبات النسبي، يوجد فيه ــ إلى جانب اللهجات الرئيسة للغة (التي قد تتضمن معيارًا أو معايير إقليمية) ــ تنوعٌ لغوي أو مستوى من مستويات اللُّغة فوقي مفروض، شديد التباين بالنسبة إلى المستويات الأخرى، وعالي التشفير (يكون في الغالب أكثر تعقيدًا على المستوى النحوي)، هو الحامل لقدر كبير ومبجَّل من التراث المكتوب، وهو إما أن يُعزى إلى حقبة مبكرة، وإما إلى جماعة كلامية أخرى. هذا المستوى اللُّغوي يجري تعلُّمه في أغلب الأحيان من خلال مؤسسات التعليم الرسمية، ويُستخدم لمعظم أغراض الكلام الرسميّ والكتابة، لكن لا تستخدمه أي شريحة من المجتمع في محادثات الحياة اليومية. (Ferguson 1959: 345)

إن الازدواجية اللُّغوية ــ وفقًا لفرجسون ــ موقف لغوي يختلف عن الموقف حيثما توجد فقط لهجات مختلفة تستعملها جماعة كلامية معينة. في الجماعات ذات الازدواجية اللُّغوية يوجد تنوع لغوي عالٍ (رمزه «ع» من الآن فصاعدًا) يحظى بالتقدير، ويُتَعلَّم في المدارس، ولا يُستعمل في محادثات الحياة اليومية. معنى ذلك لا أحد يتحدث بهذا التنوُّع اللُّغوي العالي بالسليقة بوصفه لغته الأم. أمَّا التنوُّع اللُّغوي الهابط (رمزه «ه» من الآن

---

[1] من المهم أن نذكر في هذه المرحلة أن أبناء اللُّغة والدساتير لا تعيِّن «العربية» المشار إليها، لكن العادة أن يُشار إلى العربية الفصحى المعاصرة. لا يُميِّز أبناء اللُّغة أيضًا بين العربية الفصحى المعاصرة والعربية التراثية، يوجد بالنسبة إليهم فقط نوع نموذجي واحد من العربية هو «الفصحى»

فصاعدًا) فهو ما يستعمل في محادثات الحياة اليومية[١]. والأهم من ذلك أن فرجسون يدَّعي أن المحك الحاسم لازدواجية اللُّغة هو وجوب أن تكون التنوُّعات اللُّغوية (التي هي محل النظر والبحث) موزعةً ومحددةً تبعًا لوظائفها التي تؤديها في المجتمع اللُّغوي موضع الدراسة (Fasold 1995: 35). لقد أكَّد فرجسون أن(ع) و(ه) كليهما يجب أن يكونا معًا موزعين «توزيعًا متكاملًا من حيث الوظيفة»(Boussofara-Omar 2006a: 630). إن الازدواجية اللُّغوية ــ حسب ما يرى فرجسون ــ هي ظاهرة لغوية ثابتة نسبيًّا. يوحي فرجسون أنه لو أن مجتمعًا يتغير وبدأت ازدواجيته اللُّغوية تتلاشى، فسيكون لهذا علامات محددة: الخلط بين أشكال من (ع) و(ه)، ومن ثَمَّ يكون التداخل بين وظائفهما (Ferguson 1959: 356)[٢].

تابَعَ فرجسون تقدُّمَه بضرب أمثلة للمواقف التي يكون فيها استعمال (ع) فقط هو الملائم، وأمثلة للمواقف التي يكون فيها استعمال (ه) هو الملائم (1972: 236). ووفقًا لفرجسون، المواقف التالية تكون فيها (ع) هي الملائمة:

١. المواعظ والخطب في الكنائس والمساجد.
٢. الكلام في المجالس النيابية والخطابة السياسية.
٣. الخطابات الشخصية.

---

١ لاحظ أن تسمية التنوُّع العالي والتنوُّع الهابط تعكس أولا التوجهات اللُّغوية بين أهل اللُّغة، وثانيا، الطبيعة الفوقية المفروضة للتنوع العالي. وكذلك من المهم أن نذكر أن علماء اللُّغة الاجتماعيين قد يشعرون بعدم الارتياح إلى هاتين التسميتين؛ لأن ثمة مكانة ظاهرة معلنة ترتبط ارتباطا قويا بالتنوُّع الهابط؛ ولأن التنوُّع الهابط لا يزال أحيانا هدفا لمحاولاتٍ في مصر ولبنان وبلاد أخرى لعدِّه التنوُّع القومي. وهذه القضية قضية النزعة القومية الإقليمية في مقابل الوحدة العربية تحتاج إلى مزيد من الدراسة.

٢ عرَّف فيشمان (Fishman (2002)) الازدواجية اللُّغوية تعريفًا يختلف قليلًا عن تعريف فرجسون. وفقًا له تكون الازدواجية اللُّغوية في موقف تبقى فيه أدوار كلٍّ من التنوُّعين منفصلة. وتكون هناك حدود واضحة تفصل كل مجموعة من اللُّغات أو التنوُّعات اللُّغوية. ويكون إدراك التنوُّع العالي أو اللُّغة مقيَّدًا عادةً بالنسبة إلى مَنْ لا ينتمون إلى الجماعة اللُّغوية. وقد أعطى مثالًا من الحال قبل الحروب العالمية، حيث كانت النخبة الأوروبية تتحدث باللُّغة الفرنسية أو بلغة عالية أخرى أو بتنوُّع عالٍ آخر، في حين كانت الجماهير تتحدث لغة أو تنوُّعًا مختلفًا لا تربطه بالضرورة علاقة بلغة النخبة. في تعريفه يكون التنوُّع العالي أو اللُّغة العالية فصحى منطوقة، في حين أنه في اللُّغة العربية ليس تنوُّعًا منطوقًا في أي بلد.

٤. المحاضرات الجامعية.
٥. نشرات الأخبار.
٦. المقالات الصحفية الافتتاحية [بقلم المحررين والناشرين عادة]، والقصص الصحفية، والتعليقات والتوضيحات أسفل الصور.
٧. الشعر.

وقدَّم أيضًا مواقف تكون فيها (ه) هي التنوُّع اللُّغوي «الوحيد» المستعمل:

١. التعليمات الموجَّهة للخَدَم والنادلين والحرفيين والباعة.
٢. المحادثات التي تجري بين أفراد الأسرة، والأصدقاء، وزملاء العمل.
٣. المسلسلات الدرامية الإذاعية (ذات الطابع الوجداني الميلودرامي التي تتناول مشاكل الحياة اليومية للشخصيات نفسها).
٤. التعليقات والتوضيحات على الرسوم الكاريكاتورية السياسية.
٥. الأدب الشعبي.

تعرض تعريف فرجسون ــ وما زال يتعرض ــ للمناقشة المستفيضة والنقد على نطاق واسع، حتى لقد انتقد هو نفسَه (Ferguson 1996)، مع أنه من المنصف في هذه المرحلة أن ننتبه إلى أن فرجسون كان يصف موقفًا لغويًّا عامًّا. لم يُخطط لدراسة الازدواجية اللُّغوية العربية بوصفها توحيدًا أو تقييسًا للغة، بل كان يصف الازدواجية لغويًّا من خلال تنوُّعاتها ومستوياتها بوصفها متعلقةً بقضايا توحيد اللُّغة. وكان يُقدِّم ــ حسب ما أقر هو ــ صورة مثالية للموقف اللُّغوي. فيما يلي تلخيص للأسئلة التي أثارها تعريفه للازدواجية اللُّغوية.

إلى أي مدى ينبغي أن يبتعد التنوُّعان اللُّغويان العالي والهابط عن بعضهما أو يقتربا من بعضهما في موقف لغوي معين حتى يُطلق عليه اسم «الازدواجية اللُّغوية»؟ هذا السؤال طرحه فسولد (Fasold (1995: 50f.)) الذي رأى أنه لا يوجد مقاييس قاطعة يمكنها أن تُعين المسافة بين التنوُّعين العالي والهابط في مجتمع ذي ازدواجية لغوية. نظر بريتو (Britto (1986: 10-12, 321)) في السؤال نفسه، وجادل بأن التنوُّعين العالي والهابط يجب أن يكونا متباعدين «على النحو الأمثل»، كما هي الحال في اللُّغة العربية، وليس «فوق الأمثل» كما هي الحال في الإسبانية والغوارانية، ولا «دون الأمثل» كما هي الحال في الأساليب التي تجمع بين الرسمية وغير الرسمية في الإنجليزية[1].

---

[1] السؤال: إلى أي مدى ينبغي أن يختلف التنوُّعان؟ - ربما لم يكن هو القضية الأساسية عند فرجسون الذي كان مهتمًا أكثر بالظروف التي قد تدفع إلى ظهور الازدواجية اللُّغوية في المقام الأول.

هل هناك تنوع عالٍ واحد فقط؟ لقد تحدَّث فرجسون عن تمييز بين تنوعين عال وهابط فقط، دون تمييز النوعين المختلفين من التنوُّع العالي، كما هما موجودان في العالم العربي، حيث يوجد تمييز بين العربية الفصحى التراثية والعربية الفصحى المعاصرة، وإن كان على الباحث أن يلاحظ أن هذا التمييز هو ابتكار غربي، ولا يُناظر أي مصطلح عربي، كما سيوضح هذا الفصل. ومهما يكن من شيء، فالعربية الفصحى التراثية هي اللُّغة الدينية وهي لغة القرآن الكريم، التي تُستخدم نادرًا إلا في تلاوة القرآن الكريم أو الاقتباس من النصوص التراثية، في حين أن العربية الفصحى المعاصرة يمكن أن تُستخدم في خطاب عامّ مثلًا. ذكرت ريدنج (Ryding) في كتابها «نحو مرجعي للعربية» (A reference grammar of Arabic (2005:7)) أن كلًّا من العربية الفصحى التراثية والعربية الفصحى المعاصرة يُشار إليهما باسم «العربية الفصحى». وهذا يُنشئ ــ بمعنى من المعاني ــ ماضيًا وحاضرًا مشتركين ومتصلين. وقد جادلت بأن هناك قليلًا من التعارضات والتباينات التركيبية بين الفصحيين التراثية والمعاصرة. الاختلافات الأساسية بينهما هي اختلافات أسلوبية ومعجمية أكثر من كونها نحوية. ومع هذا افترضت أن الأسلوب الصحفي للعربية الفصحى المعاصرة يتصف بمرونة أعلى في ترتيب الكلمات وتوليد الكلمات الجديدة والترجمات المقترضَة من اللُّغات الغربية. فتَستخدم اللُّغة المعاصرة ذات الأسلوب الصحفي ــ مثلا ــ التركيب الإضافي لصنع ألفاظ جديدة للكلمات الأجنبية المركبة وللمفاهيم المعقدة. كما افترض باتسون (Bateson (1967: 84)) أن هناك ثلاثة أنواع من التغيير بين الفصحيين التراثية والمعاصرة: فالفصحى المعاصرة تتسم بأن لها بنية نحوية أبسط، وبكونها مختلفة في معجمها، بسبب التكنولوجيا الحديثة، وبكونها مختلفة في أسلوبها نتيجةً للترجمات عن اللُّغات الأخرى وتأثير الثنائية اللُّغوية، ومع هذا لم يأخذ فرجسون هذه الاختلافات في حسبانه.

ماذا يحدث في البلاد التي يُستخدم فيها أكثر من لغة في الحياة اليومية، كما في تونس، حيث يتمتع بعض أهلها بالطلاقة اللُّغوية في الفرنسية أيضًا؟ في هذه البلاد يُعد مصطلح الازدواجية اللُّغوية أضيق دلالة من أن يصلح لوصف الموقف اللُّغوي فيها.

كم قدر التحويل الذي يمكن أن يحدث من أحد التنوُّعين العالي والهابط إلى الآخر؟ عالج فرجسون ــ إلى مدى محدود جدًّا ــ حقيقة أنه من الممكن أن يقع تحويل من أحد

التنوُّعين (العالي والهابط) إلى الآخر في الجزء نفسه من الخطاب. ويرجع سبب هذا مرة أخرى إلى أنه لم يخطط لأن يقدِّم وصفًا يعكس الموقف اللُّغوي الواقعي في البلاد العربية، بل لأن يقدم صورة مثالية معيارية للازدواجية اللُّغوية. بحثَ عددٌ من الدراسات الأحدث في مسألة التحويل من أحد التنوُّعين إلى الآخر في العربية.

فضلًا عن هذا، لم يناقش فرجسون حقًا الأهمية اللُّغوية الاجتماعية للتنوُّعات اللُّغوية المتنافسة. فلم يقترح أنه قد يكون لعوامل اجتماعية معينة دور في ترجيح اختيار تنوع لغوي معين في مجتمع ذي ازدواجية لغوية يخضع لمجموعة بعينها من الظروف. ولعل سبب ذلك ــ حسب ما قاله هو ــ أن عوامل اجتماعية مثل تلك لم تكن مشتهرة وشائعة يوم كتب مقاله، ولم تكن يُنظر إليها على أنها «علم محقَّق» ((١٩٩٦: ٦٠)). أضفى فرجسون بدلًا من ذلك مزيدًا من التركيز على دور الموقف الخارجي في تحديد الاختيار اللُّغوي، ورأى أنه في مجموعة بعينها من المواقف اللُّغوية يكون التنوُّع اللُّغوي العالي هو الملائم، وفي أخرى يكون التنوُّع الهابط هو الملائم، دون أن يأخذ في حسبانه الأهمية المحتملة لدور الفرد في ترجيح (أو انتهاك) أنماط من الاختيار اللُّغوي «محل اتفاق المجتمع» (وتغييرها في نهاية المطاف). بعد أن استعرضنا هذه المناقشات وإعادات الصياغة الحديثة لنظريته العامة، دعنا الآن نعرض بإيجاز إسهامات فرجسون في دراسة الازدواجية اللُّغوية العربية.

جذب فرجسون انتباه اللُّغويين إلى وجود تنوُّعين لغويين في العالم العربي، حقيقة أنَّ الناس لهم مواقف مختلفة تجاه هذين التنوُّعين، على الرغم من أن مصطلح «الازدواجية اللُّغوية Diglossie» استخدمه في فترة مبكرة عالم اللهجات الفرنسي ويليام مارسيه مع إشارة خاصة إلى اللُّغة العربية ((Fasold 1995: 34)). فيما يلي قصة طريفة يرويها فرجسون (Ferguson (1990: 44)). يقول: إنه ذات مرة كان يناقش بعض الأكاديميين العرب في طريقة تدريس العربية للناطقين بغيرها، هل الأنفع أن تُدرس لهم العربية الفصحى المعاصرة أو إحدى اللهجات الدارجة المستعملة في العالم العربي، مثل العربية العامية المصرية؟ فقال أحد الأكاديميين المتميزين من فوره: إنه ليست هناك من حاجة لأن يُدرس لهم أي نوع من العربية سوى العربية الفصحى المعاصرة. ورأى هذا الأستاذ أنه هو نفسه يستخدم فقط «النوع الصحيح من العربية» (قاصدًا العربية الفصحى المعاصرة). رنّ الهاتف، فذهب الأستاذ المتميز ليجيب. يقول فرجسون: إنه

سمع الرجل يقول «شونكي»[١] («كيف حالكِ» باللهجة البغدادية وبكثير من اللهجات العربية الشرقية). عندما عاد الأستاذ، لم يسع فرجسون إلا أن يعلّق قائلًا: «إنك قلتَ إنك لا تستخدم مطلقًا أيَّ نوع من اللهجات العربية»، فردّ الأستاذ: «لا أستخدمها مطلقًا»، فأومأ فرجسون قائلًا: «لقد سمعتك وأنت تجيب الهاتف منذ دقائق تقول كلمة «شونكي»» وسأله: «أليست هذه لهجة؟». فكان جواب الأستاذ: «عجبًا، لقد كنت أتحدث إلى زوجتي لا غير».

هذه القصة تُسلِّط الضوء ساطعًا على التناقض بين إدراك الناس لاستخدامهم اللُّغة واستخدامهم الفعلي لها. لاحظ أيضًا أن الأستاذ الأكاديمي اعتقد أن من المقبول أن يستخدم اللهجة في حديثه إلى زوجته (إنسان مقرّب يألفه)، وأن هذا لا يبطل قوله: إنه لا يستخدم اللهجة مطلقًا. هذا المثال يعرض أحد الأدوار التي تقوم بها اللهجة الدارجة في العالم العربي، وهو دور الإشارة إلى علاقة الألفة. ناقش جومبرز (Gumperz 1976)) دور تحويل الشفرة بوصفه وسيلة لإحداث التضامن والألفة[٢].

بصرف النظر عن كل النقد اللاحق لنظرية فرجسون، لا يزال مقترحه ــ أن هناك قطبين تنوعًا عاليًا وآخر هابطًا ــ صحيحًا صالحًا، على الرغم من أنهما يتداخلان على المستويين الشكلي والوظيفي، ربما بقدر أكبر مما توقعه فرجسون أو كان مستعدا للإقرار به[٣]. يفترض مجدل (Mejdell (1999: 226)) أن التقسيم (ع) و(ه) لا يزال قائمًا صحيحًا. عقب مقال فرجسون، حاول اللُّغويون أن ينقحوا مفهومه باقتراح مستويات وسيطة، لكن تظلُّ هذه المستويات لا يمكن فهمها إن لم يفترض الباحث سلفًا وجود قطبين (ع) و(ه). ومن المحتمل أن التنوُّع العالي النقي والتنوُّع الهابط النقي لا يحدثان في معظم الأحيان، وأن هناك عادةً عناصر من التنوُّعين كليهما في كل مقطوعة ممتدة

١تعني الكلمة حرفيا: «ما لونك؟».

٢ذُكر جومبرز هنا على الرغم من أنه لم يناقش الازدواجية اللُّغوية في العالم العربي؛ لأن مفاهيمه للوظائف الخطابية لتحويل الشفرة سوف تُطبَّق على تحويل الشفرة الازدواجي، وسوف يُدرس التحويل الازدواجي وتحويل الشفرة من خلال الإطار نفسه.

٣ أفترضُ أن التداخل بين التنوُّعين العالي والهابط قد وُجد حتى في وقت أن كتب فرجسون مقاله (١٩٥٩)؛ لأن اللُّغة العربية، شأنها شأن أي لغة أخرى، متطورة وليست ثابتة لا تتغير. يفترض والترز (Walters (1996)) أن الموقف اللُّغوي في العالم العربي كان ولا يزال في حالة تغير مستمر.

من الكلام العادي، لكن يظلُّ على الباحث أن يأخذ في حسبانه تنوُّعًا عاليًا أو هابطًا مفترَضًا؛ لكي يفترِض مسبقًا أن هناك عناصر تنشأ من أحد التنوُّعين أو كليهما في مقطوعة من الخطاب. وقد أدرك فرجسون نفسه في الحقيقة وجود مستويات وسيطة، لكنه أصرَّ أنها لا يمكن وصفها إلا ضمن إطار (ع) و(ه):

> لقد أدركت وجود صور وسيطة، ذكرتُها بإيجاز في المقال، لكني شعرت بعدئذٍ ــ وما زلتُ أشعر ــ أن المحلِّل يجد في حالة الازدواجية اللُّغوية قطبين، يمكن في ضوئهما وصف التنوُّعات الوسيطة. وليس ثمةَ قطبٌ ثالث ((١٩٩٦: ٥٩)).

من المؤكد أن فرجسون قد استحث اللُّغويين ليبحثوا في مسألة الازدواجية اللُّغوية، لكنه لم يقدِّم إجابات محددة عن كثير من الأسئلة. يُعبِّر والترز (Walters (2003: 103)) عن هذا بقوله:

> كان محتملًا أن يكون فهمنا لهذه الظواهر [يقصد: ظواهر لغوية اجتماعية] بعيدًا قليلًا عن الدقة التي هو عليها الآن، لو لم يعلّمنا فرجسون أن ننظر إلى اللُّغة كما فعل، ناظرًا إلى ما وراء المعيار والنموذج المنحرف عنه الذي ما يزال في الغالب الأعم تتصف به النقاشات حول العربية وكل اللُّغات ذات الازدواجية. وقد شجّعنا ــ بفعله هذا ــ على أن نبحث بحرص في تنوُّعات خاصة ومجموعات خاصة من الممارسات اللُّغوية، بوصف ذلك وسيلة إلى فهم أفضل للعمليات اللُّغوية الاجتماعية الموجودة عبر الجماعات الكلامية، والتي قد تبدو لأول وهلة متباينة تمامًا.

لاحظ أن فيشمان (Fishman (1967)) قد عيَّن مجالات ــ موافقا فرجسون ــ لتحديد الازدواجية اللُّغوية. فعلى سبيل المثال، يمكن أن تندرج أحداث الكلام تحت مجالات مختلفة، مثل: محادثة عن كرة البيسبول، محاضرة في الهندسة الكهربية. المجالات الكبرى التي عيّنها، هي: الأسرة، والصداقة، والدين، والتعليم، والعمل. انظر أيضًا ((see also Myers-Scotton 2006)). وذهب أيضًا إلى أن أحداث الكلام هذه تربطها علاقات تخصيص بالجماعات الكلامية.

دعونا الآن نفحص النماذج النظرية للازدواجية اللُّغوية التي سعت إلى تنقيح أفكار فرجسون وتحسينها.

النظريات التي تُناقش الازدواجية اللُّغوية من حيث مستوياتها:

بعد مقال فرجسون عن الازدواجية اللُّغوية، فكر بلانك (Blanc (1960)) وبدوي (Badawi (1973)) وميسيله (Meiseles (1980)) في أن اقتراح مستويات وسيطة بين التنوُّعين العالي (ع) والهابط (ه) قد يقدِّم وصفًا أدق للمشهد اللُّغوي في العالم العربي. ومن ثَمَّ أدركوا أن الناس يتحوّلون من أحد التنوُّعين إلى الآخر خاصةً حين يتكلمون، لكنهم لا يتحوّلون تحوُّلا تامًّا، وينتج عن هذا مستويات وسيطة من التنوُّع اللُّغوي ليست تنوُّعًا عاليًا تمامًا ولا تنوُّعًا هابطًا تمامًا. أقام بلانك تحليله على أساس عينات مُسجَّلة على أشرطة من محادثات متعددة اللهجات. وميَّز بين خمسة تنوعات لغوية ((١٩٦٠: ٨٥)): تراثية، وتراثية معدَّلة، وعامية شبه أدبية (رفيعة المستوى)، وعامية مشتركة، وعامية خالصة. وميَّز ميسيله (Meiseles (1980)) بين أربعة تنوُّعات: عربية أدبية أو فصحى، عربية أدبية شفاهية، عربية المتعلمين المنطوقة، عامية دارجة خالصة. أما بدوي فقد اقترح أن هناك خمسة تنوُّعات لغوية مختلفة: الفصحى التراثية، فصحى العصر، عامية المثقفين، عامية المتنورين، عامية الأميين. أقام بدوي دراسته على عينات من وسائل الإعلام المصرية. يُعدُّ تصنيفه أكثر حسمًا وأكثر إشكالًا من تصنيفي بلانك وميسيله؛ لأن تسميته للتنوُّعات تتضمن تراتبية هرمية اجتماعية وأسلوبية.

حاول بدوي أن يشرح أي مستويات اللُّغة المنطوقة هو الاستعمال النمطي في مصر لكل فئة من مستعملي اللُّغة، ولكل موقف لغوي.

١. فصحى التراث: هي عربية التراث الأدبي والقرآن الكريم. وهي تمثِّل النحو العربي المعياري كما يُتعلَّم في المؤسسات العريقة، مثل الأزهر (أقدم جامعة مصرية). وهي لغة مكتوبة، لكنها تُسمع منطوقة في البرامج التليفزيونية الدينية.

٢. فصحى العصر: هذه هي ما أسميه أنا ومَن تثقفوا في الغرب» العربيةَ الفصحى المعاصرة». وهي تعديل وتبسيط للعربية التراثية، تكونت لتلبي احتياجات العصر الحديث. وتُستخدم في نشرات الأخبار مثلًا. ومن المعتاد أن تُقرأ بصوت عالٍ من نصوص مكتوبة، فإن كان المتحدث ماهرًا بها فقد يستخدمها أيضًا في التعليق على النصوص.

٣. عامية المثقفين (ذوي التعليم العالي): هي عامية متأثِّرة بالعربية الفصحى المعاصرة. تُستخدَم في المناقشات الجادّة، لكن ليس من المعتاد كتابتها.

يستخدمها المثقفون على شاشات التليفزيون. وهي أيضًا اللُّغة المستخدمة في التعليم الرسمي في الجامعات المصرية، وأصبحت وسيلةَ تعليم الطلاب ومناقشتهم في مختلف الموضوعات. صارت ــ بعبارة أخرى ــ الوسيط اللُّغوي لتوجيه التعليمات في قاعات الدرس المصرية.

٤. عامية المتنوِّرين (ذوي التعليم الأساسي): هذه هي لغة الحياة اليومية التي يستخدمها المتعلمون (تعليمًا دون الجامعي) في الحديث إلى أهلهم وأصدقائهم. وقد تُستعمل في التليفزيون في برامج الحوار في الرياضة أو الأزياء أو غيرها من الموضوعات غير المتخصصة ثقافيًّا. ويستخدمها أيضًا المثقفون والمتنورون في الكلام العفوي في موضوعات غير جدِّيّة.

٥. عامية الأميين: هي صورة من العامية تتصف بغياب تأثير الفصحى المعاصرة. تجري في التلفزيون على ألسنة شخصيات معينة في المسلسلات الميلودرامية، وبرامج الأطفال، والمواقف الكوميدية[1].

وأوضح بدوي أن كل فرد يجيد أكثر من مستوى من هذه المستويات، ويتحوّل غالبًا من أحدها إلى الآخر في المحادثة نفسها((١٩٧٣: ٩٣)). ومع ذلك فإن الأميين وضعيفي المستوى من المتنورين قد يواجهون صعوبة في التحوُّل بين المستويات كثيرًا كغيرهم؛ لأنهم بارعون فقط في مستوى أو اثنين. تجدر ملاحظة أن بدوي حين حدَّد المستويات المختلفة كان يستخدم عوامل لغوية اجتماعية، مثل التعليم. واستخدام التعليم معيارًا قد يُعدَّ مشكلة في الوصف الذي قدَّمه. ليس واضحًا في مستويات العامية، هل هي مبنية على أساس متغيرات اجتماعية اقتصادية مثل التعليم؟ أم أنها مجرد «نطاقات استخدام أسلوبية»؟ أم أنها هذا وذاك؟ جديرٌ بالذكر هنا أن بلانك (Blanc 1960: 151))) يقرُّ بوجود «انتقالات متدرجة بين نطاقات الاستخدام المتنوعة»، في حين أن بدوي(Badawi (1973: 95)) يقول إن هذه المستويات الخمسة ليس بينها حدود واضحة ثابتة، لكنها تتلاقى ويبهت بعضها في بعض، كالألوان في قوس

---

[1] في المسلسلات الميلودرامية المصرية التي تحكي قصصًا من مشكلات الحياة اليومية تتحدث الشخصيات كلها حتى المتعلمون تعليمًا عاليًا بلغة المتعلمين المنطوقة. في مواقف محددة، مثل مرافعة محام في قاعة المحاكمة تستخدم الشخصية اللُّغة الفصحى المعاصرة، أو تتنقل بين المستويات التي ذكرها بدوي. وهذه هي الحال منذ أن بدأ رواج هذه المسلسلات في مصر في الستينيات.

قزح. ومن ثَمَّ بوسع الباحث أن يقترح نظريًّا ــ بدلا من هذه الخمسة ــ عددًا لا نهائيًّا من المستويات، بل إنَّ المستويات الثلاثة التي حدَّدها بدوي للعامية ليس فيها متغيرات مُخصَّصة حصرًا لأي منها. السؤال دومًا عن الدرجة قلةً وكثرةً، وليس ثمة خطوط فاصلة حادة بين المستويات.

قبل أن أختتم هذا الجزء، سألقي الضوء على مفهوم آخر مختلف عن مفهوم المستويات، لكنه يظل مرتبطًا بالازدواجية، وكذلك بالتنوُّعات واللهجات المختلفة في العالم العربي، إنه مفهوم عربية المتعلمين المنطوقة.

فكرة عربية المتعلمين المنطوقة:

يعتقد ميتشل (Mitchell) أن العربية الدارجة (يقصد العربية العامية/ اللهجية) ليست خالصة وغير مختلطة بغيرها، بل إنها عرضة باستمرار لتأثيرات العصر الحديث (١٩٨٦: ٩). ووفقًا لما يراه، ليست عربية المتعلمين المنطوقة[١] تنوُّعًا منفصلًا، بل إنها «تكوَّنت» و«بقيت» بسبب التفاعل بين اللُّغة المكتوبة واللُّغة الدارجة[٢]. وقد فَسَّر وجودها بالأسباب التالية: أولًا، في العالم الحديث، قد يتحدث المتعلمون والمتعلمات في موضوعات متخصصة تقع خارج مجال لهجاتهم الدارجة المحلية. ثانيًا، يرغب المتعلمون في أن «يتشاركوا ويتواصلوا» هم والعرب الآخرون الذين تجمعهم بهم خلفية علمية ومشابهة. إذ يرغبون في تعزيز ما يلزم لمواجهة ضغوط الحداثة، والتحضرية والتصنيعية، والتعليم الجماهيري، والنزعة الدولية (١٩٨٦: ٨). ومن ثَمَّ يحتاج العرب إلى وسائل تواصل مشتركة، وهذا يتأثر حتمًا بما هو مشترك بينهم جميعًا: معرفة تركيب العربية الفصحى المعاصرة ومفرداتها. ومع ذلك فهذا لا يعني أنهم يتحولون إلى «عربية فصحى معاصرة شفاهية»، وإنما يعني أنهم يتحولون إلى صورة لغوية تحتوي على عناصر مشتركة بين اللهجات الدارجة، وكذلك عناصر من العربية الفصحى المعاصرة. أودُّ

١بدأت فكرة عربية المتعلمين المنطوقة تتشكل بمشروع ليدز (١٩٧٦) الذي قام على محادثات ومناقشات مرتجلة دون إعداد بين أشخاص تربطهم علاقات شخصية متنوعة، لمناقشة وافية انظر ((El-Hassan 1977: 120, Mejdell 2006)). لاحظ أيضًا أن البيانات ركزت على أشخاص متعلمين من بلاد الشام ومصر خاصة.

٢يرتبط التنوُّع العالي والعربية الفصحى بالكتابة واللُّغة المكتوبة ارتباطًا كثيرة طرقه، بما يشمل القراءة الجهرية للنصوص المكتوبة.

أن أوضح أن فهم اللهجات الإقليمية/ القومية مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالحياة اليومية لا بالحياة المهنية/ الأكاديمية. وبناءً على ذلك ربما لا يكون لدى المتحدثين كلمات جاهزة لمناقشة الشؤون التقنية والعلمية.

تُعدُّ فكرة عربية المتعلمين المنطوقة فكرة مهمة، وليس هذا لأنها تهتم فقط بكيفية تواصل الأشخاص الذين ينتمون لمجتمعات متقاربة؛ بل لأنها تُعنى أيضا بكيفية تواصل العرب الذين ينتمون لمجتمعات مختلفة عبر الحدود المجتمعية. قارن التعريف المشابه التالي لـ «عربية المتعلمين المنطوقة» (عن ميسيله):

> هي اللُّغة غير الرسمية الحالية التي يستخدمها العرب المتعلمون؛ لتلبية احتياجاتهم اللُّغوية اليومية عامةً. وهي أيضًا الوسيلة الرئيسة للتواصل بين اللهجات العربية، وواحدة من أهم سماتها على الإطلاق ــ أقصدُ إمكانية التفاهم بها بين متحدثي لهجات دارجة مختلفة ــ قد انبثقت في الأساس من دوافع المتحدثين إلى التشارك في لغة واحدة، تجمعهم ومن يجاورهم أو يجاورونهم ((١٩٨٠: ١٢٦)).

حاول ميتشل أيضًا أن يضع بعض القواعد التركيبية العامة لعربية المتعلمين المنطوقة المشتركة. فعلى سبيل المثال، في العربية الفصحى المعاصرة، يكون للعدد المثنى علامة في معظم أقسام الكلام: في أسماء الإشارة، والأفعال، والأسماء، والضمائر، والصفات. أما في عربية المتعلمين المنطوقة- حسب ما يرى ميتشل- فيكون له علامة فقط في الأسماء والصفات. يُعبَّر عن النفي في العربية الفصحى المعاصرة بالأدوات: لم، لن، لا، ما. وهذه يُستبدل بها في عربية المتعلمين المنطوقة أشكال أخرى تستعمل في التنوُّعات العامية مع بعض الفروق بين المناطق. تعترف فكرة عربية المتعلمين المنطوقة بإمكان التحوُّل بين اللهجات الدارجة والعربية الفصحى المعاصرة دون افتراض أي شيء يتعلق بالأساليب الوسيطة. بهذا المعنى هي واعدة وأشمل ــ بوصفها وسيلة كاشفة ــ من مفهوم المستويات، فضلًا عن ذلك تحول هذه الفكرة عرب بلاد مختلفة من التواصل، بدلا من أن تركز على العرب في بلد بعينه. فكرة أن العرب المختلفين الذين ينتمون إلى مجتمعات مختلفة يُعدِّلون لغتهم عندما يتحادثون- جديرة بالانتباه إليها؛ نظرًا لكونها عملية من المفترض أنها تحكمها قواعد وليست عشوائية.

تطرح فكرة عربية المتعلمين المنطوقة ــ على أية حال ــ عددًا من الأسئلة حول طبيعة العلاقة التزامنية بين الفصحى المعاصرة واللهجات الدارجة المختلفة. أولًا، يبدو مصطلح «العرب المتعلمين» غامضًا. هل العرب المتعلمون هم مَن تعلموا تعليمًا أوليًّا فحسب، أو هم المثقفون ذوو التعليم العالي؟ ثانيا، إنْ كان ما يزال صعبًا على اللُّغويين أن يوافقوا على مستويات مختلفة تُستخدم ولو في مجتمع واحد، فإلى أي مدى قد يكون من الأصعب أن يحاولوا وصف ماهية القواعد في حالة الاتصال فيما بين المجتمعات؟ من وجهة نظري، أرى أنَّ على الباحث أنْ يحاول أن يصف أولًا الموقف اللُّغوي في بلاد بعينها. ترى ميرلي أن عربية المتعلمين المنطوقة الموجودة لا تساعد على تطبيق المفهوم على الموقف اللُّغوي في بلد معين؛ لأن ميتشل لم يتمكن من تقديم وصف شامل لكيفية عملها، أي أن يُحدِّد بدقة ما يفعله الناس حين يتنقّلون ما بين الفصحى المعاصرة ولهجاتهم الدارجة. ذهب باركنسون (Parkinson 2003)) أيضًا إلى أنه على الرغم من افتراض أن تكون عربية المتعلمين المنطوقة محكومة بقواعد، فليس هناك قواعد واضحة تصفها. ورأى أن «عربية المتعلمين المنطوقة ربما ليست لها حقيقة في الواقع» ((٢٠٠٣: ٢٩)). فيما يلي نقد نيلسين (Nielsen) لفكرة عربية المتعلمين المنطوقة:

عربية المتعلمين المنطوقة هي تنوُّع مختلط، ذو تشفير سيئ للغاية [...] وبصرف النظر عن دراسات قليلة جدًّا، مثل دراسة عيد ((Eid 1982)). فليس ثمةَ بحثٌ قد حدَّد أيَّ نوع من القواعد يحكم فعلًا هذا الخليط، ولا نعرف أهذه القواعد صالحة للتعميم أم لا؟ وهذا لا نعني به أن أبناء اللُّغة لا يعرفون كيف يدمجونها معًا، لكننا ليس لدينا معلومات موثوق بها تقطع بأن هذا التنوُّع المختلط ليس ظاهرة تأثرت بشدة بعوامل شخصية أو إقليمية، مثلًا ((١٩٩٦: ٢٢٥)).

إحدى قضايا عربية المتعلمين المنطوقة هي التقابل بين المنظورين المعياري والوصفي لفكرة «القاعدة». على الباحث أن يكون قادرًا على أن يصف الموقف اللُّغوي وصفًا مستفيضًا دقيقًا قبل أن يشرع في تعيين مجموعة من الممارسات اللُّغوية في مجتمع أو مجتمعات بعينها. ويحتاج أيضًا إلى أن يعرف أتوجد وظائف خطابية لعربية المتعلمين المنطوقة تحكم وقوعها أم لا؟ أتختلف هذه الوظائف من بلد إلى آخر أم لا؟

في الأقسام التالية سأركز على التنوُّعات القومية، لكنني قبل أن أصنع قائمة لمجموعات اللهجات والتنوُّعات في العالم العربي، أودُّ أن أُبيّن الفرق بين التنوُّع المرموق الذي يحظى بوجهة اجتماعية والتنوُّع المعياري الذي يُعد نموذجًا للاستعمال.

اللهجات والتنوُّعات في العالم العربي:

مفهوم الوجاهة مختلف عن مفهوم المعيار:

ثمة إدراك متزايد ــ منذ منتصف الثمانينيات ــ أن التنوُّع في الكلام العربي ليس مجرد مسألة تدخُّل التنوُّع العالي في التنوُّع الهابط، أو ليس كذلك في جوهره. حسب ما يرى إبراهيم (Ibrahim (1986: 115)) «تعيين التنوُّع العالي بوصفه التنوُّع المعياري والمرموق في الوقت نفسه يقود إلى مشكلات في تفسير بيانات ونتائج البحث اللُّغوي الاجتماعي في العربية». هذا التعيين هو نتيجة لتطبيق البحث الغربي على العالم العربي دون الانتباه إلى اختلاف الموقف اللُّغوي. في البحث في الجماعات الكلامية الغربية يكون الباحثون- بوجه عام- قادرين على افتراض أن التنوُّع الموحَّد للغة معينة ــ أي التنوُّع الذي خضع لعملية تقنين معيارية واعية مقصودة ــ هو أيضًا التنوُّع الذي يحظى بمكانة مرموقة واضحة ومعلنة.

توضح كثير من الدراسات أنه ــ بالنسبة إلى معظم المتحدثين ــ يوجد تنوُّع مرموق داخل التنوُّع الهابط، ويعتمد تعيينه في كل بلد على عوامل كثيرة؛ جغرافية وسياسية واجتماعية، وقد يؤثر في الكلام في ظروف معينة. في مصر، بالنسبة إلى غير القاهريين، هو التنوُّع المرموق من العربية المصرية القاهرية، أما بالنسبة إلى النساء الأردنيات اللاتي من بيئات بدوية أو ريفية، فقد يكون اللهجات الحضرية للمدن الكبرى ((Abdel-Jawad 1986: 58)).

في دراسة تاريخية أجراها بالفا (Palva (1982)) على بيانات من اللهجات العربية المنطوقة سُجلت وجُمعت منذ عام ١٩١٤م في بلاد الشام واليمن ومصر والعراق، وعُقدت بينها مقارنات، فحص بالفا وجود عناصر صوتية وصرفية ومعجمية في اللهجات طوال فترة زمنية، وقد وجد أن بدائل لهجية معينة أصبحت تدريجيًّا أكثر شيوعًا من البدائل «المعيارية»، فعلى سبيل المثال، تُنطق القاف الفصيحة القديمة نطقًا حنجريًّا شبيهًا بنطق الهمزة الفصيحة، وهذا النطق هو سمة صوتية للعديد من اللهجات الدارجة، وقد صار واسع الانتشار وسائدًا أكثر من نطق القاف في العربية الفصحى المعاصرة ((١٩٨٢: ٢٢-٤)).

تفترض أبو حيدر (1991 Abu-Haidar))) في دراستها للهجات المسلمين والمسيحيين في بغداد أنه:

> بصرف النظر عن العربية الفصحى المعاصرة (التي هي التنوُّع العالي لكل البغداديين) يستخدم المتحدثون بالبغدادية المسيحية لهجتهم الخاصة بوصفها تنوُّعًا هابطًا في المواقف غير الرسمية في البيت ومع أعضاء جماعتهم، في حين يستخدمون البغدادية الإسلامية ــ بوصفها تنوُّعًا عاليًا آخر ــ في المواقف الأكثر رسمية مع غير المسيحيين ((١٩٩١: ٩٢)).

صار من المعلوم أن العربية الفصحى المعاصرة ليست وحدها منبع الوجاهة الاجتماعية اللُّغوية، وأنه تقريبًا في كل جماعة كلامية عربية تمت دراستها يوجد تنوُّع هابط سائد يمارس تأثيرًا على التنوُّعات الهابطة الأخرى ذات المكانة الدنيا في هذا البلد أو في المنطقة المحيطة به. وأسباب تأثيره متنوعة، لكن الأسباب الرئيسة بينها هي عوامل، مثل: السيادة الاقتصادية والاجتماعية للمدينة على ما حولها من المناطق الريفية (مثل حالة القاهرة)، أو تأثير المجموعة السياسية الحاكمة (مثل حالة العائلات الملكية في الخليج)، حيث تصبح لهجات هذه الكيانات رمزًا لسلطتها، وتمارس تأثيرًا فعَّالًا فيمن يتواصلون معهم، أو عليهم أن يتعاملوا مع متحدثي هذه اللهجات.

لألخص ما سبق، أودُّ أن أوضِّح أولًا أن العرب يتصورون كل التنوُّعات التي نوقشت فيما سبق بوصفها «اللُّغة العربية». ثانيًا، رُصدت كلُّ التنوُّعات السابقة في بلاد تُعدّ فيها اللُّغة «العربية» ــ أقصد الفصحى ــ هي اللُّغة الرسمية الوحيدة للبلاد. ينبثق تعقيد الموقف اللُّغوي من حقيقة أن أبناء اللُّغة العربية لا يميزون بين العربية الفصحى المعاصرة والعربية التراثية. فلا يوجد بالنسبة إليهم إلا عربية فصحى واحدة، كما قلنا سابقًا. ويستخدمون أيضًا كلمة «العربية» للإشارة إلى العربية الفصحى وعاميات البلاد الأخرى، التنوُّعات القومية. في هذه الأحوال لا يتفق أبناء اللُّغة واللُّغويون. قد يرى اللُّغويون ــ وأدواتهم وأجهزتهم الخاصة ــ أن كلَّ تنوُّع قومي هو لغة مميزة منفصلة. أما أبناء العربية فهم على وعي بوجود كيان أكبر يوحِّدهم، وهو العربية الفصحى. يعطي التنوُّع العالي من الازدواجية اللُّغوية العربية ــ أي العربية الفصحى ــ المتعلمين بعضَ الأدوات التي يحتاجون إليها لفهم التنوُّعات الأخرى.

تحويل الشفرة:

قُلِّل من قيمة تحويل الشفرة في العالمين العربي والغربي حتى عهد قريب جدًّا، وكان هذا لأسباب مختلفة. فقد أطلق أحد الكُتّاب العرب على التحوُّل من العربية إلى لغة أجنبية ــ حسب قول سليمان (Suleiman (2004: 227)) ــ اسم «الدعارة اللُّغوية». ومن الممكن أن يُعدَّ أيضًا شكلًا من أشكال «الاختراق الاستعماري». قبل المقال القديم الذي كتبه بلوم وجومبرز (Blom and Gumperz (1972)) عن التحويل الشفري بين اللهجات النرويجية في همنسبرجت (مدينة صيد نرويجية) كان التحويل الشفري يُعدُّ جزءًا من الأداء المعيب للأشخاص ثنائيّي اللُّغة (bilingual) الذين ليس بوسعهم إجراء حوار بلغة واحدة في مواقف مختلفة (Myers-Scotton 1993: 47).

حين يُسأل الأشخاص ثنائيو اللُّغة: لماذا يحولون الشفرة؟ فهم يزعمون عادةً أنهم يفعلون ذلك ليملئوا الفجوات المعجمية، أي أنهم لا يعرفون كلمة معينة في إحدى لغتيهم، فيستخدمون الكلمة المقابلة في اللُّغة الأخرى. وقد يزعمون أيضًا أنهم ليس لديهم كلمة بعينها للتعبير عن مشاعرهم في إحدى الشفرتين اللتين يُحسنونها، فيلزمهم التحوُّل إلى الشفرة الأخرى. لكنّ هذا ليس صحيحًا دائمًا؛ لأن ثنائيّي اللُّغة قد يتحولون ما بين كلمة من شفرة ومكافئة لها من الشفرة الأخرى لها المعنى نفسه تمامًا. وعندما يحولون الشفرة باطراد، يفعلون هذا عادةً لأسباب بعينها (Romaine 1995: 169). إن تناولنا تحويل الشفرة على أنه ظاهرة ذات أبعاد خطابيّة، فعلينا أن نفترض أن له دوافع لغوية اجتماعية، لا يمكن فهمها من ناحية القيود النحوية فقط، على الرغم من أن القيود النحوية تظل حاسمة من حيث إنها تضبط الموقع المحتمل لحدوث التحويل الشفري.

قد يكون مصطلح «تحويل الشفرة» واسع الدلالة جدًّا أو ضيق الدلالة جدًّا، شأنه شأن كل مصطلحات علم اللُّغة الاجتماعي. من الجدير بالملاحظة ــ مع هذا ــ أن مصطلح تحويل الشفرة عند مايرز لا ينطبق فحسب على التحوّل بين لغتين مختلفتين، بل يتسع أيضًا للتحوّل بين تنوُّعات من اللُّغة نفسها. ومن ثَمَّ فالتحويل الازدواجي (أي الذي بين تنوُّعين يمثلان معًا ازدواجية لغوية) ــ وفقا لنظريتها ــ يُعدُّ نوعًا من

التحويل الشفري[1]. وهي تعتقد أن التنوُّعات هي مصطلح مظلّيّ يغطي الاختيارات على كل المستويات اللُّغوية حتى إن الاختيار بين التنوُّعات يشمل ــ على سبيل المثال ــ اختيار لغة دون أخرى، ولهجة دون أخرى، أسلوب أو نطاق استخدام دون غيره، شكلًا من التوجيه أو الرفض دون غيره (Myers-Scotton 1998b: 18). يُعرِّف جومبرز التحويل الشفري ــ في حجاجه من منظور مشابه ــ بأنه تجاور أجزاء من الكلام تنتمي لنظامين نحويين مختلفين رئيسين أو فرعيين ضمن الحدث الخطابي نفسه (1982a: 59). ولم يقصر أيضًا تحويل الشفرة على التحويل بين اللُّغات المختلفة. أعتقدُ أن تعريفي مايرز وجومبرز أكثر قابلية للتعديل والتكييف من غيرهما؛ لأنهما أكثر مرونة. الأدق أن نستخدم مصطلح «شفرة» بدلًا من مصطلحي «اللُّغة» و«التنوُّع». تبقى لدينا، على أية حال، مشكلة اصطلاحية تحتاج إلى معالجتها في القسم التالي.

تحويل الشفرة والازدواجية اللُّغوية:

يمكن دراسة الازدواجية اللُّغوية ــ من وجهة نظري ــ ضمن الإطار النظري لتحويل الشفرة؛ لأن تحويل الشفرة لا يقع بين اللُّغات المختلفة فحسب، وإنما يقع أيضًا بين التنوُّعات في اللُّغة نفسها كما ذكرتُ سابقًا. وبناء على ذلك، فبدلًا من استخدام مصطلح «التحويل الشفري الازدواجي» للإشارة إلى التحويل من اللُّغة العربية الفصحى المعاصرة إلى اللهجات الدارجة المختلفة، يمكن استخدام مصطلح «تحويل الشفرة» لهذا الغرض نفسه[2]. وقد افترض مجدل (Mejdell (2006b)) أن تحويل الشفرة ينبغي أن يُفهم في سياق أعمّ، ليضم كلًّا من التنوُّعات واللُّغات المختلفة ((Mejdell 2006b: 418)).

[1] سوف أتناول التحويل الازدواجي فيما بعد في هذا الفصل، لكني أريد للتوضيح أن أذكِّر أن التحويل يكون عادةً بين التنوُّعين العالي والهابط. ويكون عادةً بين الفصحى المعاصرة وإحدى اللهجات، مثل التونسية، راجع Boussofara–Omar ٢٠٠٦))، أو المصرية راجع (Mejdell ٢٠٠٦ and Bassiouney ٢٠٠٦))، أو أي لهجة أخرى مما نوقش قبلًا.

[2] ربما لا يزال هناك سمات مائزة للتحويل الازدواجي يُنظر إليها بسبب خصائص الازدواجية اللُّغوية على أنها حالة من الصلات القوية طويلة الأمد بين تنوُّعين لغويين لما يُتصوَّر أنه لغة واحدة.

الدوافع والوظائف الخطابية لتحويل الشفرة التقليدي:

ليس المتحدث ــ وفقا لجومبرز (Gumperz (1982a: 61)) ــ مجرد بيدق شطرنج يتحكم فيه الموقف اللُّغوي. في الحقيقة العكس هو الصحيح: إن المتحدث هو الذي يتلاعب بالموقف اللُّغوي. معنى هذا أن المتحدث، وليس الحدث الكلامي، هو المحرك الرئيسي في تحويل الشفرة: «بدلا من ادعاء أن المتحدثين يستخدمون اللُّغة استجابةً لمجموعة من الوصفات الثابتة المحددة سلفًا ــ يبدو من المعقول أكثر افتراض أنهم يبنون كلامهم على أساس فهمهم التجريدي لمعايير الموقف، وعلى أساس فهم مخاطَبيهم لها؛ ليوصِّلوا معلومات استعارية عن مقاصدهم من كلامهم.

تنبثق أهمية أفكار جومبرز ــ في فهمنا لتحويل الشفرة ــ أيضًا من حقيقة أنه تناول تحويل الشفرة بوصفه ظاهرة جديرة في ذاتها بالتحليل والدراسة. لقد ميَّز بين تحويل الشفرة الموقفي والاستعاري ((Blom and Gumperz 1972)). يكون تحويل الشفرة الموقفي مدفوعًا بعوامل خارجية بالنسبة إلى المشاركين في الكلام، مثل: الإطارين الزماني والمكاني، أو موضوع الكلام، أو التغير في الموقف الاجتماعي. أما تحويل الشفرة الاستعاري فيكون دافعه هو المشاركون في الكلام أنفسهم، ويكون مرتبطًا بإدراكهم وتمثيلهم لذواتهم بالنسبة إلى العوامل الخارجية، مثل: الإطارين الزماني والمكاني، أو موضوع الكلام، أو التغير في الموقف الاجتماعي. أشار بلوم وجومبرز (Blom and Gumperz (1972: 434)) على سبيل المثال إلى أنه إن اختار طلاب قرية الصيد النرويجية التي في همنسبرجت أن يستخدموا اللهجة المعيارية (بعد استخدامهم اللهجة غير المعيارية)؛ فربما لا يكون سبب ذلك أن موضوع كلامهم تغير فحسب، ولكن أيضًا لأنَّ استخدام اللهجة المعيارية يكون علامةً على انتمائهم إلى جماعة مشتركة بوصفهم المثقفين. وبناء على ذلك، يأخذ الطلاب ــ كل واحد منهم ــ في حسبانه حقيقة أن كل المشاركين في الكلام يتشاركون في المستوى التعليمي نفسه ويستخدمون هذه اللهجة. في هذا المثال، يكون لاستخدام شفرة دون غيرها وظيفةٌ خطابية هي تعيين انتماء المتكلم إلى جماعة اجتماعية محددة.

ناقش جومبرز (Gumperz (1982a: 95)) فيما بعد ــ فضلًا عما سبق ــ لأول مرة ثنائية «نحن» و»هم». يوجد شفرتان مختلفتان يستخدمها المتحدثون عامةً: شفرة «نحن» وشفرة «هم». ترتبط شفرة «نحن» الجامعة اجتماعيًّا بالبيت والروابط الأسرية، في حين ترتبط شفرة «هم» الفاصلة اجتماعيًّا بالتعاملات العامة.

حدَّد جومبرز (Gumperz (1982a: 75-84)) الوظائف الآتية لتحويل الشفرة، فوفقًا له، يتحوّل المتحدثون من شفرة إلى أخرى للأسباب التالية:

١. تضمين اقتباس.[١]
٢. تخصيص المخاطَب بوصفه المقصود بالكلام.
٣. التكرار والأصوات الدالة على التأثر والانفعال.
٤. تعديل أو تقييد كلام.
٥. التفرقة بين الشخصي والعام.

لخَّص روميني (Romaine (1995: 161-2)) وظائف جومبرز، ورأى أيضًا أن التحويل قد يؤدي إلى الوظائف التالية:

١. شَغل وظيفة في جملة.
٢. إيضاح أو تأكيد فكرة أو مقصد.
٣. التخلص إلى موضوع جديد.
٤. تحديد نوع أو نمط الخطاب.
٥. تخصيص مجال اجتماعي معين.

قدمت مايرز (Myers-Scotton (1993)) نظرية تحاول أن تفسِّر تحويل الشفرة بوصفه ظاهرة عالمية تحكمها قواعد. فجادلت بأن حقيقة أن المتحدثين يتحوّلون من شفرة إلى أخرى أو من لغة إلى أخرى ــ لا تعني بالضرورة أن هذا التحويل له دوافع اجتماعية. لا يلزم أن يدل تحويل الشفرة في ذاته على أي تأثير، ولا يلزم أن يكون له أي وظيفة خطابية. قد يُستخدم تحويل الشفرة بوصفه تنوُّعًا غير موسوم لمجتمعات معينة (مثل السلوك اللُّغوي العادي). ويمكن أن يُستخدم دون أن يكمن وراءه دافع اجتماعي معين، وبالرغم من أنه يبدو لِمَن لا ينتمي لهذا المجتمع اللُّغوي وكأنه يحمل مضمونًا اجتماعيًّا ــ فإنه بالنسبة إلى أبناء هذا المجتمع هو المعيار.

---

١ لاحظ أن اقتباسات تحويل الشفرة تحكي غالبًا لغة المنطوقات الفعلية، لكن في الاستخدام يميز تحويل الشفرة حدود الاقتباس من الكلام المحيط به.

العلاقة بين اختيار الشفرة ودور المتكلم في الخطابة السياسية المصرية: دراسة حالة:

في الدراسة التالية، سأبحث في العلاقة بين اختيار الشفرة واختيار المتكلم دورًا معينًا. أحاجّ بأنه يوجد في الخطب السياسية عامةً علاقةٌ مباشرة بين تغيُّر الدور وتغيُّر الشفرة. وهذه العلاقة بالرغم من بحثها هنا في خطب سياسية حديثة ــ ليست ظاهرة جديدة.

يختار المتحدث عادةً شفرة لغوية لنقل مقصده، وهذا يعني في دراستي هذه أن يختار استخدام عربية المتعلمين المنطوقة أو العربية الفصحى المعاصرة. ومع هذا هناك بعض أنواع «النقلات» التي قد يقوم بها المتكلم لأغراض بلاغية، تتصل بعلاقته بجمهوره وببعض طرق التعبير عن مقاصده التي يبدو أن لها أهمية خاصة لما تخبرنا به عن كيفية تصوُّره لدوره في علاقته بهم. هذه النقلات يدل عليها في الغالب أنواع معينة من الاختيارات الصوتية والنحوية. فعلى سبيل المثال، قد يُبين استخدام التعجب لا الخبر تغيُّرًا في دور الخطيب/ الرئيس إزاء جمهوره. قد يكون اختيار ضمير المتكلم أو المخاطب أو الغائب المتصل بالفعل دالًّا ومهمًّا أيضًا، فعلى سبيل المثال: في عرض القضايا، إن بدأ المتحدث باستخدام الأفعال المسندة إلى ضمير المخاطب، فقد يكون فعله هذا علامةً على تغير في دوره تجاه كلٍّ من الرسالة والجمهور. تستلزم ظواهر نحوية، مثل النفي واستخدام الإشاريات والتعبير عن جهة الفعل، أن يقوم المتحدث باختيارات في الشفرة بين عربية المتعلمين المنطوقة والفصحى المعاصرة (كما رأينا)، وهذه الاختيارات ــ وهي بارزة عن الرسالة الفعلية ــ تبعث إشارات بشأن الدور الذي يعزوه المتحدث لجمهوره.

بعد فحصي البيانات السياسية، وجدت أن هناك علاقة مباشرة بين تغيير الدور وتغيير الشفرة، وهذا يقدِّم دليلًا يدعم آراء جومبرز وجوفمان.

أُلقيت الخطبة التي حُلِّلت هنا في عيد العمال (١٩٩٩). ألقاها الرئيس المصري حسني مبارك، وكان الجمهور يتألف من وزراء الحكومة وموظفيها من كلِّ طبقات المجتمع. قدّم الرئيس في خطبته بيانًا بإنجازات العام وبالمشكلات التي تحتاج إلى التصدي لها. راوح الرئيس بين العربية الفصحى المعاصرة وعربية المتعلمين المنطوقة جيئةً وذهابًا مرتين. عرض في الجزء الأول من خطبته إنجازات الحكومة. دعنا الآن نتأمل دور مبارك في الجزء الثاني الذي تلا الأول مباشرة. في هذا الجزء تحولت الشفرة

من العربية الفصحى المعاصرة إلى عربية المتعلمين المنطوقة، وكان التحويل مفاجئًا وجذريًّا تمامًا. يناظر التغيير الجذري للشفرة من العربية الفصحى المعاصرة إلى عربية المتعلمين المنطوقة، تغييرًا جذريًّا مساويًا في دور المتحدث في علاقته بجمهوره، وبطريقة تبليغه رسالته.

مثال من الجزء الأول من الخطبة:

يقول مبارك في الجزء الأول من الخطبة:

> ثانيًا: إصلاحُ الخللِ في الميزانِ التُّجاري/ عن طريقِ زيادةِ الصادرات وترشيدِ الاستيراد/ فقضيةُ الصادراتِ المصرية قضيةٌ مصرية/ يجب أن تشغلَ اهتمامِ كلِّ الفئات/ التي تتحمّلُ جانبًا مِن عِبء/ ومسؤوليةِ الإنتاجِ في مصر/ وكلُّ المؤسساتِ التي تعملُ من أجلِ سلامةِ الاقتصادِ المصري/ ونقطةِ البدءِ الصحيح في تقديري/ هي أن تكونَ هناكَ سياسةٌ واضحة/ هدفها توسيع قاعدة ونوعيةِ الصادراتِ المصرية حتى لا تكونَ عرضةً لتقلّباتٍ كبيرةٍ مرتبطةٍ بأسعارِ عددٍ قليلٍ من السلعِ كالبترول.

في هذا الجزء يتكلم مبارك فصحى ثم يحوِّل شفرته- كما قلنا- إلى العامية.

يروي مبارك هنا قصةً ليدعم قضيته المجردة بشأن التوازن التجاري. في روايته للقصة، غيَّر أيضًا دوره إزاء جمهوره إلى دور «صديق العمر المخلص» أو «الصاحب المصري». كان يسلِّم بأن جمهوره سيفهم ما يتحدث عنه: الجمهور هنا يُعامل مثل شخص وُلد وتربى في الريف المصري كالرئيس، واعتاد مثله وهو طفل أن يصنع الطائرات الورقية من الأوراق والخيوط، وقد كانت هذه لعبة معروفة للصبية الفقراء الذين لا يملكون اختيارًا إلا أن يصنعوا لعبهم. الطائرات الورقية التي اعتاد هو وجمهوره في طفولتهم أن يصنعوها بأنفسهم تُستورد الآن من البرازيل.

> «ده أنا مرة/ أنا كنت/ في شرم الشيخ/ عارفين الطيارة اللي كُنّا بنعملها في الفلاحين دي/ الورق دي/ ونلزقها ببوص وكرة دوباره ونطيّرها/ جايبينها من البرازيل/ طبعًا دا مبلغ هايف/ بيقول لك وده مبلغ/ أنا بضرب مثل/ شارينها من البرازيل (تصفيق) الـ/ المحل اللي بيبيع آيس كريم بيفتخر/ الآيس كريم من برا/ الكباية جايا من برا المعلقة جايا من برا/ يا فرحتي/ طب ما عندنا مصانع»

الاختلاف بين الجزأين الأول والثاني هو اختلاف بين المجرد والحسي، ويسمح التحوّل في اختيار الشفرة للرئيس بأن يُظهر هذا الاختلاف، وأن يصل إلى عقل الناس وعواطفهم.

النمط العام للخطبة:

تبنى الرئيس في هذه الخطبة إستراتيجية محددة في تحويل الشفرة. فقد عرض حقائق مجردة بالعربية الفصحى المعاصرة، ثم شرحها بعربية المتعلمين المنطوقة بأمثلة حسية شخصية، مُغيِّرًا دوره في هذه النقلة. إن إستراتيجية الانتقال جيئةً وذهابًا بين العربية الفصحى المعاصرة وعربية المتعلمين المنطوقة هو السمة الأساسية «لتخطيط» هذه الخطبة. يُلخص الجدول التالي المناقشة السابقة.

شفرة المتحدث	الدور الذي يعزوه لجمهوره	الدور الذي يتخذه المتحدث لنفسه	هوية المتحدث العامة	نوع الفقرة
العربية الفصحى المعاصرة الخالصة	مواطنون	رئيس	رئيس مصر	الجزء الأول
عربية المتعلمين المنطوقة الخالصة	أصدقاء العُمر/ أصحاب مصريون	صديق العمر المخلص	رئيس مصر	الجزء الثاني
العربية الفصحى المعاصرة الخالصة	مواطنون	رئيس	رئيس مصر	الجزء الثالث
عربية المتعلمين المنطوقة الخالصة	أصدقاء العُمر/ أصحاب مصريون	صديق العمر المخلص	رئيس مصر	الجزء الرابع

جدول ١ العلاقة بين اختيار الشفرة ودور المُتحدِّث

لا تعد ظاهرة التحويل ما بين عربية المتعلمين المنطوقة والعربية الفصحى المعاصرة ظاهرةً جديدة، كما ذكرتُ سابقًا، ولدعم بياناتي أودُّ أن أشير إلى خطبة سياسية أقدم للرئيس الراحل جمال عبد الناصر.

عُيِّن جمال عبد الناصر (١٩١٨-١٩٧٠) رئيسًا للوزراء عام (١٩٥٤)، وصار رئيسًا لمصر من عام (١٩٥٦) حتى عام (١٩٧٠)، وقد كان بارعًا في التصرُّف في الكلام، مالكًا لزمام لغته. وكان معروفًا عنه استخدام عربية المتعلمين المنطوقة في خطبه، انظر (Holes 1993). وأظهر لجمهوره باستعماله عربية المتعلمين المنطوقة أنه واحد منهم، يتكلم مثلما يتكلمون في حياتهم اليومية. وجعل أيضًا كلامه مفهومًا لَمن لهم معرفة محدودة بالعربية الفصحى المعاصرة.

في السادس والعشرين من أكتوبر عام ١٩٥٦، عام توليه السلطة، وفي واحدة من أقدم مناطق الإسكندرية: المنشية، ألقى عبد الناصر خطبته إلى كل المصريين: الطلاب،

والفلاحين، والعمال، والسياسيين. وبينما كان يلقي الخطبة، إذ وقف رجل وحاول اغتياله بإطلاق الرصاص عليه. كان المشهد مذاعًا على الهواء أمام كل الجماهير، وتبثه مباشرة الإذاعة لكل مستمعي الراديو. وليس من مفاجأة في أن أصبح حادثة مشهورة في تاريخ مصر. قُبض فورًا على الرجل، لكن عبد الناصر رفضَ أن يغادرَ وقرر أن يستأنف خطبته. واتخذت الخطبة مسارًا جديدًا. لقد كاد أن يُغتال. وهذا كان كافيًا لأن يظهر مشاعره في هذه اللحظة. من المؤكد أنه كان محبطًا ومصدومًا، إن لم يكن خائفًا. وقد طلب إلى الناس أن يستمعوا إليه وألا يفزعوا أو يرحلوا، وأخبرهم أن عليهم أن يدركوا أنه إن مات جمال عبد الناصر، فكلهم جمال عبد الناصر. أما المفاجئ حقًا فهو أنه تحدَّث بالعربية الفصحى المعاصرة.

> أيها المواطنون، إذا مات جمال عبد الناصر، فأنا الآن أموت وأنا مطمئن؛ فكلكم جمال عبد الناصر، تدافعون عن العزة، وتدافعون عن الحرية، تدافعون عن الكرامة... أيها الرجال، سيروا على بركة الله.

ما يزال صدى هذه الكلمات يتردد في مصر بين عشاق عبد الناصر. لقد تحدث بتلقائية في لحظة عصبية مستخدمًا العربية الفصحى المعاصرة، ومكرِّرًا الجمل والكلمات بصوت مؤثر مشحون بالمشاعر. وربما كان سبب هذا أنه كان منفعلًا ومصدومًا. يبدو أن الفصحى المعاصرة تُستخدم في وقت الخطر حين يكون المرء مصدومًا وغضبان، على الأقل بالنسبة إلى الرئيس. كان عبد الناصر حينئذٍ يُغيِّر دوره، فلم يعد الصديق أو القرين، ولم يمنح نفسه مكانة أرقى أو أخفى. لقد كان رمزًا، فكرةً، هذه الفكرة كانت متأصِّلة في كل المصريين. أي إنسان بوسعه أن يكون عبد الناصر، وبوسعه أن يقوم بدوره. لم يكن يحاول أن يتماهى معهم أو يعزِّز انتماءه إليهم، بل كان يحاول أن يثبت أن غضبه وعزمه على التحدي- ولو قتلوه- فسيبقى حيًّا في كل مصري. حين كان يتحدى كلَّ الذين يريدون التخلص منه، كان يستخدم العربية الفصحى المعاصرة، وهي تمنحه السلطة أيضًا، لقد استخدم صوت التراث، الديني والتاريخي، وصوت سلطة منصبه. وهذا مثال آخر للعلاقة المباشرة بين تغيُّر الدور واختيار الشفرة.

لتلخيص هذا القسم، أقولُ يبدو واضحًا الآن أنَّ هناك نزعة ظاهرة في الخطب السياسية لدى السياسيين إلى أن يغيِّروا شفرتهم حين يغيِّرون دورهم. ولمّا كانت الغاية في كثير من الخطب السياسية هي الإقناع، فلا عجب أن يوجد هذا القدر الكبير من

التحويل الشفري بين عربية المتعلمين المنطوقة والعربية الفصحى المعاصرة. يتضمن الإقناع غالبًا تغييرًا للدور. ويبقى السؤال: هل العلاقة بين تغيير الدور وتحويل الشفرة مقتصرة على الخطب السياسية؟ وهل هي ظاهرة عامة، كما يرى بعض اللُّغويين (Goffman 1981, Romaine 1995)[1]؟ يوجد أيضًا نمط عام لطريقة استخدام كل من عربية المتعلمين المنطوقة والعربية الفصحى المعاصرة في الخطب السياسية المدروسة. تساعد خطبة عبد الناصر الأقدم على دعم دعوى أن العلاقة بين تغير الدور وتغير الشفرة هي علاقة قديمة. لاحظْ أنه في مصر بوصفها مجتمعًا ذا ازدواجية لغوية، يكون المتحدث لا الموقف هو الذي يؤثر في اختيار اللُّغة، وإن كان دور الموقف لا يمكن إنكاره، لكن المتحدث يأتي أولًا في الترتيب.

١ من المحتمل أن العلاقة تختلف من مجتمع إلى آخر، وهذا يحتاج إلى مزيد من الدراسات التي تقارن بين المجتمعات العربية المختلفة، أو بينها وبين المجتمعات غير العربية.

بعض النقاط المهمة:

- يمكن دراسة الازدواجية اللُّغوية في الإطار النظري لتحويل الشفرة. إن تطبيق نظريات تحويل الشفرة على الازدواجية اللُّغوية يمكن أن يوضّح وينقّح فهمنا للازدواجية اللُّغوية في العالم العربي عامةً. عند استكشاف الدوافع والوظائف الخطابية لكلٍّ من التحويل الشفري التقليدي والتحويل الشفري الازدواجي ــ بدا واضحًا أن البحث في تحويل الشفرة يمكن فعلًا أن يسلِّط مزيدًا من الضوء على الازدواجية اللُّغوية، ويمكن تطبيقه بنجاح على البيانات حيثما يوجد تحويل للشفرة بين تنوُّعين لغويين في العربية، أحدهما العربية الفصحى المعاصرة. ومع ذلك عند تطبيق نظريات القيود التركيبية ونماذج تحويل الشفرة على التحويل الشفري الازدواجي ــ يبدو واضحًا أن هذه النظريات والنماذج التي تفلح في لغة مختلفة لا تفلح بالضرورة في مجتمع ذي ازدواجية لغوية. الازدواجية اللُّغوية أكثر تعقيدًا من الثنائية اللُّغوية. فضلًا عن ذلك، يجب أن تُدرس القيود التركيبية على التحويل الشفري الازدواجي في كل مجتمع ذي ازدواجية لغوية واحدًا واحدًا قبل إجراء أي تعميمات، في ضوء الاختلاف بين المجتمعات العربية في التعرُّض للعربية الفصحى المعاصرة، وفي ضوء الاختلاف في استيعاب تراكيبها التي تُكتسب في كل مجتمع منها.
- النقطة الأخيرة الجديرة بالذكر هنا هي أن عدد البحوث التي أُجريت على التحويل الازدواجي- بوصفه نوعًا من تحويل الشفرة - قليل مقارنة بعدد البحوث التي أُجريت على تحويل الشفرة التقليدي. وما يزال ثمة قدر كبير من العمل يُحتاج إليه لفهم ظاهرة التحويل الازدواجي فهمًا تامًّا، أو للتنبؤ بمساراتها.

اللهجات والتحدُّث عنها في مصر:

أمثلة ونظريات:

مثال اللهجات الصعيدية في مصر:

بينما نطق المتغير الصوتي يرتبط بمكان معين في معظم بلدان العالم، يُعَدُّ هذا النطق بمثابة أهمية دلالية أكثر من كونه تعريفًا لمكان النشأة فقط. فمثلًا، على مدار أعوام تمَّ إنتاج مسلسلات مصرية مرتبطة بصعيد مصر، تمثِّل صعيد مصر على أنه مختلف كل الاختلاف عن القاهرة، وفي معظم الأحيان أقلّ تحضُّرًا وأقل تقبُّلًا للأفكار المدنية، ومن أمثلة هذا مسلسلات، مثل: سلسال الدم، وذئاب الجبل، إلى آخره.

ارتبط الصعيد في العاصمة بتجارة الآثار والسلاح والثأر وظلم المرأة، وغيرها من الصفات السلبية التي تتداولها مسلسلات الصعيد، فأصبحت الموارد اللُّغوية لدى أهل الصعيد أقل إيجابية عن الموارد اللُّغوية القاهرية. هذا نتيجة مباشرة لأيديولوجيات سائدة، وأصبحت هجرة أهل الصعيد للمدن مثل القاهرة مرتبطة برغبة قوية في تغيير لهجتهم إلى اللهجة القاهرية، كما أوضحت ميلر في دراستها للمهاجرين من الجنوب للقاهرة.

في دراسة أجرتها بسيوني عن النقاش حول اللهجات الصعيدية تفحَّصت بسيوني وحلَّلت حوارات الممثلين والذين يمثلون أدوارًا صعيدية وكيفية إتقانهم للهجات، وأيضًا حلَّلت حوارات مع مدربي اللهجات ونظرتهم للهجات الصعيدية.

وجدت بسيوني الآتي في دراستها:

أولًا: لا يوجد دراية لغوية علمية لدى الممثلين بكيفية اختلاف اللهجات، ولكنْ هناك تحاملٌ واضحٌ ضد اللهجات الجنوبية بشكل عام، كما سيتضح في الأمثلة.

ثانيًا: يعتبر مدربو اللهجة اللهجة الصعيدية لهجةً صعبة جدًّا، ولا يمكن تعلُّمها بسهولة، بل من المستحيل إتقانها.

ثالثًا: أهل الصعيد وخاصة مَن لديه التمكن من الظهور في الإعلام على دراية بالدلالات السلبية للهجاتهم، ولديهم طرق مختلفة لمقاومة هذا الموقف السلبي، كما سيتضح في القصيدة المذكورة أسفل للشاعر الصعيدي هشام الجخ.

الاختلافات بين لهجات الصعيد ولهجات القاهرة اختلاف تركيبي وصوتي ودلالي.
مثلًا، هناك اختلاف في صيغة السؤال:
في اللهجات الصعيدية يتم استعمال
.we:n, me:ta, ke:f
في القاهرة يتم استعمال:
ʔimta, fe:n, ʔizza:y
في الفصحى:
متى- أين- كيف
الاختلافات على مستوى الكلمة في بعض الكلمات، مثل:
صعيدي:
xalaga:t
قاهري:
hudu:m
فصحى:
ملابس
.(Miller 2005: 922)
على مستوى بناء الجملة هناك اختلاف في النفي ما بين القاهري والصعيدي.
القاهري يستعمل
miʃ كأداة نفي
miʃ ʔa:dir
الصعيدي
ma-gadir-ʃ
الفصحى
لا أستطيع
.(see Miller 2005; Hopkins and Saad 2004)

هناك ارتباط بين استعمال مكونات تلك اللهجات ونمط معين من الرجال والنساء في الصعيد؛ مما يؤكد الصورة السلبية لأهالي الصعيد في المسلسلات والأفلام والإعلام بصفة عامة. فأصبح هناك ارتباط شرطي بين اللهجة والصفات السلبية.

في أسفل، بعض الأمثلة من ممثلين يؤدون اللهجة الصعيدية: كلامهم عن اللهجة يدل على الآتي:

- عدم الدراية الكافية بمقومات اللهجات والاختلافات بينها.
- عدم الدراية بالمكان ولا مَن يعيشون فيه.
- الآراء السلبية المرتبطة بمَن يستعمل اللهجة.

الممثلة داليا البحيري تتكلم عن مسلسل القاصرات (٢٠١٣)[١]:

أول مرة أعمل صعيدية/ فبالنسبة لي مرعوبة/ الكلام صعب قوي/ وفي تسهيل في الكلام زي اللُّغة العربية بالضبط / (...) فطبعا في طاقة إن إنت تتلع انفعال وتمثل بلكنة إنت مش مالكها بخيالك تطلع طاقة أكتر/ أنك تزهر المشاعر/ فربنا يستر وأعرف أعمل صعيدية كويسة.

الممثل محمد كريم[٢]:

فجأة عملت دور الصعيدي الفيلين الشرير/ اضطريت أن أنا أتقن اللُّغة الصعيدية شوية/ فعايز أقولك: كل البوابين اللي في المنطقة قعدت معاهم/ كانوا صحابي لمدة شهرين/ بنتكلم مع بعض/ ونخرج مع بعض/ طبعًا في ناس في اللوكاشن بيصححوا لنا.

مدرب اللهجة محمد في حوار عن اللهجة يتكلم عن مدى صعوبتها، وكيف أن إحدى الممثلات طلبت منه ألا يتكلم اللهجة أمام ابنتها وإلا تكلمت ابنتها مثله، وأصبحت هذه مصيبة. الدلالات السلبية للهجات الصعيد واضحة في هذه الأمثلة.

مدرب اللهجة نفسه يعرف حجم السلبيات المرتبط باستعمال اللهجات الصعيدية خارج نطاق الصعيد، ولكن للهجات الصعيدية دلالات إيجابية أيضًا وخاصة عند أهل الصعيد. مَنْ يملك من أهل الصعيد الفرصة للظهور في الإعلام والتحدُّث عن اللهجة

١انظر https://youtu.be/ZYrM٦xtYTxg (accessed 12 June 2016).

٢انظر https://youtu.be/gF٤٤WnGp٢Cg (accessed 12 June 2016).

ومحاولة تغيير الصورة النمطية عن أهل الصعيد، يحاول أن يفعل هذا. ممن تمسكوا بإلقاء الشعر باللهجة الصعيدية الشاعر عبد الرحمن الأبنودي، والشاعر هشام الجخ. في القصيدة التالية يوظِّف الشاعر الصورة النمطية السلبية عن أهل الصعيد في مصلحته، ويؤكد على تفوق رجال الصعيد على رجال القاهرة.

في المثال التالي مثال على الاستعمال المقصود في الشعر للهجات الصعيد للتعبير عن الهوية.

القصيدة بها كلمات مرتبطة فقط بلهجات الصعيد، مثل: نقصان/ القاهرة ناقص.

ضي/ القاهرة ضوء أو نور.

شي/ القاهرة حاجة.

جلة ثجة أو جلة فهم/ قلَّة ثقة أو قلَّة فهم / إلَّة ثقة أو إلَّة فهم.

خلج حمير/ خلق حمير/ ناس حمير.

القصيدة:

وبقولها:

أيوه بغير

لا أنا نَقصان ولا ضَعْفانْ

ولا مسطول ولا سكرانْ

ولا زايغ من عيني الضَيّ

ولا حد أحسن مني في شَيّ

بس بغيرْ

واللي قالولك غيرة الراجل

قِلّة ثقة أو قلة فَهم

خَلْق حمير

غيرة الراجل نار في مَرَاجِل

نار بتنوّر مابتحرقش

وإحنا صعايدة مانستحملش

شمسنا حامية، وعِرْقنا حامي، وطَبْعِنا حامي

واللي تخلّي صعيدي يحبها.. يبقى يا غُلْبها!

أصلنا ناس على قدّ الطيبة كلّنا هيبة
والنسوان في بلادنا جواهر
طب لو عندك حتة ماس..
حتخلّيها مداس للناس؟
ولّا هتِقْفلي أوضة عليها بمِية تْرْباس؟
يمكن حتى تأجّرِي ليها جوزين حرّاس
يبقى أنا.. لا أنا غافل، ولا جاهل
كل الفرق ما بيني وبينك إنّي صعيدي
ينعل أبو ده اليوم الأكحل، اللي لا ليه آخر ولا أوّل
اللي طلعت لقيتني صعيدي
لو كان بإيدي، كنت أعملك هندي بِريشْ
وأقلب شعري كانيش كرابيش
وألبس لك سلسلة متدلدلة خرزة وقلب
بس إزاي ألبس لك سلسلة؟ هوّ أنا كلب؟!
ثم العبرة ماهيش في اللبس
أصل المشكلة مش في اللبس
أصل المشكلة عنْدِكْ.. عِنْدِكْ
قلت هاسيبها وبكرة تحسّ
بعدُه تحسّ.. بعدُه تحسّ
ده أنا لو جِبْس.. كنت زعقت
ماشي صداقة وماشي زمالة
بس ماجَتْش على الرجالة!
ما هي نسوان الدنيا كتير
وأنا ماباقولش تخاصمي الناس
ولا تِتْحِجْبي عن الرجالة
ولا تعتكفي وتسكني دير
بس يا ريت حبة تقدير
إني باحبّك وإني باريدِك

وإني زرعت حياتي في إيدِك
وإني غزلت بنات الدنيا عقود على جيدِكْ
وإني تعبت من التفكيرْ
وإني بغيرْ

يستعمل الشاعر هنا اللهجة الصعيدية في كلمات، مثل: نقصان، القاهرة ناقص، وفي نطق تقدير: تجدير، ويربط اللهجة التي يلقي شعره بها بمفهومة عن الرجولة وبالدلالات الإيجابية للرجل الصعيدي الذي يحمي زوجته ويتكفَّل بها.

كل هذه الأمثلة توضِّح أهمية النقاش حول اللُّغة في تكوين الدلالات الاجتماعية لدى الأفراد.

اللهجة الإسكندرانية والنقاش حولها:

في مثال آخر نجد اللهجة مكتوبة في مقال، هذا يحدث نادرًا في مصر، في بعض الأحيان نجد اللهجات مكتوبة في الشعر أو حوارات الروايات، ولكن من النادر جدًّا وجود لهجة في مقال في جريدة.

المقال كان في جريدة اليوم السابع في ديسمبر ٢٠١٠ بعد حادثة تفجير كنيسة القديسين في الإسكندرية، وكاتبة المقال غادة عبود من الإسكندرية، واستعملت في مقالها اللهجة السكندرية للتأكيد على أن هوية الإسكندرية ليست هوية دينية، بل هوية محلية مبنية على تشابك اجتماعي بين المسلم والمسيحي، ومبنية على مجتمع ممارسة أعضائه من المسيحيين والمسلمين، وللتعبير عن هذا الاندماج بين الاثنين تعتمد غادة عبود على تأدية كتابية للهجة السكندرية، وهذا شيء مبتكر وغريب على الصحافة المصرية.

مثال اليوم السابع. مقال: آه أنا إسكندرانية وضد الإرهاب ٢٠١١ غادة عبود:

> آه أنا إسكندرانية، ركبت الترام من بكلة لمحطة الرمل، وأتمشى هناك للصبح، أنا اللي لما ينزل فيلم جديد بقطع تذكرة في سينما مترو، أنا اللي بوقف على القمة عشان أوقف تاكس، وقبل ماركب أقوله «الإبراهيمية ياسطة؟ بس أكتر من ٥ جينى ما تلاقيش، «أنا اللي كل ما أقابل واحدة جميلة وسابغة شعرها كله أشقر أسألها، «هو إنتي من بحري؟» ترد عليا «عرفتي منين؟» أجاوبها، «من لون شعرك!» أنا اللي في الصيف بتمشى في المعمورة، وأتصور جنب الجسر في المنتزة، أنا اللى بقول لَبست، شَربت، زَهقت، وبنطق «كوسة»، «كووسة،» ولما القاهراوية يستغربوا كلامى، أقول بفخر «أصل أنا ملاكي إسكندرية».

أنا اللي باكل الفول من «محمد أحمد»، وأنا اللي بزاحم الناس عشان أشتري «جيلاتي عزة»

ما محمد ومايكل إخواتي، وخديجة وماري كمان إخواتي، أخدنا إسكندرية من الأنفوشي للعصافرة، بنزعل مع بعض لما مصر تخسر ماتش، ونهيّص الدنيا مع بعض لمّا الأهلي يكسب، دول اللي كانوا جنبي وحواليّا، همّا الإرهابيّين الكفرة دول فاكرين يوقعوا بينى وبين ليندا؟ طبعًا لأ، ليندا وماري وجون عارفيني، بنقسّم اللقمة سوا، وحافظين نفس الإفيهات من المسرحيات والأفلام، بنضحك عليها سوا،

لا أنا ولا فيرجنين يتضحك علينا، وإزاي يكون، وإحنا الإسكندرانية نفهمها وهيا طايرة، إحنا كلنا عارفين إن اللي هدد أمننا، وسوّلت له نفسه إنه ممكن يخوّفنا، واحد مش مننا، لا عمره سمعنا بنتكلم.

أنا اللي بوقف على القمة عشان أوقف تاكس وقبل ماركب أقوله «الابراهيمية ياسطة؟ بس أكتر من ٥ جينى ما تلاقيش.

تربط الكاتبة بين المكان والعادات واللُّغة وتتكلم عن هذه المتغيرات الاجتماعية في إطار موحد، وتقلل من أهمية الاختلاف الديني عند المصريين في هذا الاطار، وتحاول التأكيد على أن المجتمع يتكون من نسيج واحد.

تكتب عن الاختلاف بين اللهجة السكندرية والقاهرية وعن كيفية النطق: شَربت، زَهقت، وبنطق «كوسة»، «كووسة،» ولما القاهراوية يستغربوا كلامى، أقول بفخر: «أصل أنا ملاكى إسكندرية».

وتستعمل الواو والفتحة للتعبير عن الاختلاف كتابيًّا في مقال لجريدة، وهذا في حد ذاته جديد على الصحافة المصرية. التأكيد هنا على الهوية السكندرية التي لا يستطيع الارهاب أن ينال منها مهم جدًّا، ولا يمكن فهمه سوى بفهم دلالات ما بعد اللُّغة في هذا السياق.

اللُّغة كمصدر أثناء الصراعات السياسية: الصراع بين العامية والفصحى والإنجليزية في مصر:

في هذا الجزء سأعطي مثالين لاستعمال اللُّغة، ليس فقط بوصفها وسيلة للتواصل، ولكن كرمز للهوية السياسية ووجود أو عدم وجود الديمقراطية. في هذه الأمثلة تمثل الفصحى دور الكود الذي يعطي الشرعية لأي حركة ثورية، وتصبح العامية بدلالات سلبية ككود لا يعطي الشرعية ولا يمثل المصريين. هذا في حد ذاته ليس صحيحًا، ولكن الكلام عن الأيديولوجيات اللُّغوية مهم في فهم الدلالات الرمزية للكود واستنباط أهمية استعماله أو عدم استعماله. وقد أجرت بسيوني دراسة على التعليقات في مصر وقت ثورة يناير ٢٠١١ من المذيعين ومقدمي البرامج على اللُّغة المستعملة في ميدان التحرير، فقد ادَّعى بعضهم أن كلَّ مَن في ميدان التحرير لا يتكلم سوى الإنجليزية، وادّعى آخرون أن كلَّ مَن في ميدان التحرير أجانب يتقنون العامية، وكل هذه الادعاءات مهمة في مجال علم اللُّغة الاجتماعي؛ لأنها تلقي الضوء على العلاقة المتشابكة بين الهوية السياسية واللُّغة من ناحية، وبين شرعية المطالب واللهجة من ناحية أخرى.

في مقال لفتحي سرور في الأهرام قبل قيام ثورة يناير، يتكلم فتحي سرور عن أهمية اللُّغة في التعبير عن الهوية، ويعبر عن قلقله من انهيار الفصحى، ويقول إن هذا الانهيار سيؤدي إلى عدم القدرة على فهم الدستور وتشريعاته، ويربط سرور في مقاله بين اللُّغة والهوية والدستور، ويتكلم عن الفصحى والعامية كيانين مختلفين في التداعيات والدلالات الاجتماعية والسياسية.

> وتدفعنا أهمية اللُّغة العربية في التعبير عن ذاتيتنا الثقافية مقترنة بالأزمة التي يمر بها التعامل مع هذه اللُّغة إلي معرفة حكم الدستور حول هذه اللُّغة.
>
> الدستور هو الذي يحكم مسيرة حياتنا العامة، ويحدِّد المقومات الأساسية لمجتمعنا.. والنظرة إلي اللُّغة العربية في الدستور نظرة تنقب عن الشرعية الدستورية التي تحكم استخدام لغتنا.. تلك الشرعية التي أقام أركانها الشعب المصري حين وضع دستورَه لكي يحدِّد مسار حياته ويضع دعائمها. [...]

كما أوضح الدستور دعائم مكانة اللُّغة العربية داخل الدولة حين نصَّ في مادته الثانية على أن الإسلام دين الدولة؛ وهو ما يبرز العلاقة بين لغة الدولة وعقيدتها الدينية الرسمية بوصف أن اللُّغة العربية هي لغة القرآن الكريم. [...]

وجاء كل ذلك متفقًا مع مبدأ اعتنقه الدستور، وهو الانتماء القومي للشعب المصري، حيث نصت الفقرة الثانية من المادة الأولى من الدستور على أن الشعب المصري جزء من الأمة العربية. فهذا النص يحمل في طياته تأكيدًا على أن اللُّغة العربية هي لغة الشعب المصري. ولما كان وجود الشعب يسبق وجود الدولة؛ فكان منطقيًّا أن يتحدد مركز اللُّغة العربية في الدستور مع تحديد الانتماء العربي للشعب المصري في مادته الأولى. [...]

وإذا كان الخطر الذي يواجه اللُّغة العربية الآن يهب من التآكل العام للغة الفصحى وغياب الإلمام بها وبمفرداتها وترادفاتها وتراكيبها ومعانيها ونحوها وصرفها؛ إلا أن هذا التآكل العام لا تحتمله المواد القانونية والقضائية، فالفصحى هي قوام الأحكام وأساس صياغة الفكر القانوني عامة.

بعد ثورة يناير يتطرق فاروق شوشة الشاعر إلى الموضوع نفسه، ويربط الفصحى بالهوية ولكن من منظور سياسي مختلف كما في المثال التالي:

حين هتف شباب مصر في أول أيام ثورتهم بالهتاف الذي رددته الملايين من ورائهم: الشعب يريد إسقاط النظام، وما يتضمنه من حرص على لغة عربية صحيحة؛ ثم بعد أن تتابعت نداءاتهم وشعاراتهم على مدى الأسابيع المتصلة؛ في لغة سليمة تفجر بها شعورهم الوطني الفائر وعزمهم المتقد

وجدت نفسي أسترجع الشعارات التي رفعها الحزب الوطني في مؤتمراته السنوية الأخيرة؛ التي ادعى فيها رجاله التعبير عن فكر جديد، ورسالة جديدة إلي الشعب.

أن الأمية الكتابية والقرائية لم تعد حاجزًا يفصل بين المواطن والمعرفة التي يستطيع الحصول عليها بالاستماع والمشاهدة؛ وأن الأمية الحقيقية الآن لم تعد تلك المرتبطة بالقراءة والكتابة؛ بل هي البعيدة عن استخدام وسائل

الاتصال الحديثة والناتجة عن العزلة والانقطاع عن مؤثرات الحياة والمجتمع. لكن شعارات شباب الثورة ونداءاتهم ولافتاتهم - التي جاءت في صورة لغوية صحيحة - لم تجئ هكذا مصادفة، وإنما هي المعادل الموضوعي الحقيقي لما في أعماقهم من انتماء إلي الوطن ومن هوية قومية، اكتسبت لغتها القومية بصورة عفوية وغير مفتعلة. وهو ما يؤكد أن الفطرة السليمة والنزوع السليم ينتج عنهما لغة سليمة، وأن افتقاد الانتماء الوطني والحس القومي الذي انتقدناه لدى بعض قطاعات الشباب قبل ثورة الخامس والعشرين من يناير كان هو المسؤول عن انحدار المستوى اللُّغوي الذي يتخذونه لغة خطاب وتواصل.

وكان المثير للحزن والسخرية معًا، اختيار الحزب الحاكم لشعارات صاغها مَن صاغها مِن عقول الحزب المفكر في لهجة عامية سوقية، ظنًّا منه أن الشعار بهذه الطريقة يكون أكثر قدرة على الذيوع والانتشار ومخاطبة الجماهير [...]

إن ثورة الخامس والعشرين من يناير جديرة بهذا الدور الوطني والقومي في مجال اللُّغة، جديرة باجتثاث حالة التردي والإسفاف التي سيطرت على الوطن في عقوده الثلاثة الأخيرة، وزادها سوء الفكر المتخلف لقادة الحزب الوطني البائد الذين رأوا في ابتذال اللُّغة وسوقيتها سبيلًا إلي استهواء الجماهير والسيطرة عليها وترويج شعاراتها.

لكن الجماهير أسقطت- فيما أسقطته- هذا الفكر السوقي، وهذا التوجه الذي يكشف عن خواء العقل، وسيطرة الجهالة والجهلاء.

في هذا المثال يربط شوشة اللُّغة بشباب ثورة يناير وشعاراتهم، ويصبغ الشرعية على هؤلاء الشباب من أجل استعمالهم للفصحى في شعاراتهم.

في كل هذه الأمثلة تبدو اللُّغة أكثر وسيلة للتواصل، بل هي رمز ذو دلالات مهمة للمجتمع وهوية الفرد.

يهتم علم اللُّغة الاجتماعي أيضًا بسياسات اللُّغة في المجتمعات المختلفة ومناهج التعليم، ولكن لا يمكن النظر إلى هذا الشق دون فهم الأبعاد التاريخية والحضارية لسياسات التعليم في البلاد العربية المختلفة:

سياسات اللُّغة والسياسة:

يهتم بعض الباحثين بعلاقة الفرد بالأيديولوجيات السياسية والتاريخية وتأثير الأيديولوجيات على صنَّاع القرار وخاصة على السياسات اللُّغوية في المجتمع، مثلًا، ما هي اللُّغة الرسمية؟ وهل اللُّغة الرسمية هي التي يستعملها الساسة والأفراد بالفعل في المحافل الحكومية والتعليمية وفي المناسبات الرسمية؟ وهذا الفرع من علم اللُّغة الاجتماعي يتطرق إلى علاقة أيديولوجيات الفرد والجهات التي تصنع القرار، سواء أكانت جهات سيادية أم مجتمعية، وفي هذا الفرع يتطرق عالم اللُّغة الاجتماعي لتحليل ووصف المناخ الاجتماعي والسياسي والتاريخي الذي يؤدي إلى اتباع سياسة ما في بلد ما، ويحاول فهم النظريات السياسية والاجتماعية الحديثة في إطار أهمية اللُّغة ودورها الفعال في أي مجتمع. يحتاج هذا الفرع إلى خلفية سياسية واجتماعية وتاريخية، وخلفية في نظريات الأوطان، ومعنى كلمة وحدة اللُّغة والوطن. ومصطلح وحدة اللُّغة والوطن هو مصطلح غربي بدأ انتشاره في نهاية القرن التاسع عشر على يد بعض الفلاسفة الألمان والفرنسيين، وهذه النظرية تربط وحدة الأوطان بوجود لغة واحدة مشتركة، وإلى حد كبير لم تترك هذه النظرية للشعوب القدرة على التعدد اللُّغوي، أو تقبل الاعتراف باللهجات المختلفة واللُّغات المختلفة في البلد الواحد. هذه السياسة الأحادية كان لها تأثير كبير في الوطن العربي، فمثلًا لو تطرقنا للوضع اللُّغوي والتاريخي في الجزائر لوجدنا أن فرنسا احتلت الجزائر أكثر من ١٣٢ سنة.

الجزائر بلد متنوع من الناحية اللُّغوية، حيث يتحدث نحو ٢٥٪ من السكان بلغات البربر على أنها لغاتهم الأم، واللُّغات المستخدمة في الجزائر، هي: الفصحى، والعامية الجزائرية، واللُّغات/ اللهجات البربرية Chaouia، Tamazight / Kabyle Taznatit، والفرنسية. استعمرت فرنسا الجزائر لمدة ١٣٢ سنة من ١٨٣٠-١٩٦٢، واستمرت في احتلالها الجزائر وقمع اللُّغة العربية. خضعت الجزائر لتغييرات جذرية في اللُّغة الرسمية في عام ١٨٤٨، كان موقف الفرنسيين عندما استعمروا الجزائر هو تحويل الجزائر إلى جزء من فرنسا على الجانب الآخر من البحر المتوسط (ستورا، ٢٠٠١). وبعد مرور أكثر من ١٠٠ عام، كانت اللُّغة العربية (بمعنى الفصحى) هي اللُّغة الرسمية.

كما تقول ميلر: إن الافتراض هو أن اللُّغة وسيلة للقمع والسيطرة السياسية كما هي الحال في الجزائر. (Miller 2003: 3)، حاولت فرنسا بلا هوادة القضاء على الفصحى

في الجزائر، وبعد الاستقلال تبنت الجزائر سياسة تعريب قوية مبنية على أيديولوجية لغوية وسياسية ودينية.

كانت الجزائر تحت الحكم الفرنسي لمدة ١٣٢ سنة (١٨٣٠-١٩٦٢)، ووفقًا لهولت، «من الواضح أن مئةً وثلاثين سنة من السياسة اللُّغوية والتعليمية التي تحددها قوة خارجية تركت جروحًا عميقة» (١٩٩٤: ٢٥، انظر أيضًا بالداوف وكابلان ٢٠٠٧).

لاحظ أن اللُّغة الفرنسية في فرنسا ليست مجرد لغة لأمة معينة، بل هي أداة تعكس القيم العالمية للعقلانية والعلمانية وسيادة القانون، ووضوح التعبير. (هولت ١٩٩٤). كان الهدف من الاستعمار الفرنسي هو استيعاب المستعمرين. (Chumbow and Bobda 1996)، وبالتالي كانت تعرف المستعمرات باسم الأراضي الفرنسية الإفريقية في الخارج. حاولت فرنسا القضاء على الهوية الإسلامية والعربية من خلال جعل اللُّغة الفرنسية اللُّغةَ الرسمية في جميع المجالات العامة، بما في ذلك الإدارة والحياة العامة والتعليم. (ألكسندر ١٩٦٣)، وأصبح مفهوم التمدُّن والحضارة مرتبطًا بتعلُّم اللُّغة الفرنسية.

كانت سياسة فرنسا في السنوات الأولى للاستعمار هي تدمير ثقافة السكان الأصليين بدلًا من استبدالها بسياسة فرنسية. هاجمت فرنسا بنية المجتمع، واعتمد الفرنسيون على التهدئة العسكرية للجزائريين، وحاولوا تفكيك العوائل والقبائل المهمة، كما أنهم حرَّضوا البربر والعرب ضد بعضهم البعض، وتبنى الفرنسيون سياسة الاستبعاد، وظهروا بشكل أساسي بهدف تقويض شعور الجزائريين بالهوية، واستند هذا الاستبعاد ليس على العِرْق، ولكن على اللُّغة والدين، وعلى المستويين الاجتماعي والديني، جعلوا النظام القضائي المسلم خاضعًا للنظام الفرنسي (هولت، ١٩٩٤: ٣٤).

في عام ١٨٤٨ أصبحت الجزائر جزءًا رسميًّا من فرنسا (راجع ستورا ٢٠٠١: ٦)، وصارت الفرنسية لغة رسمية، ولتحقيق هدفهم المتمثل في القضاء على الهوية، استولى الفرنسيون على الأوقاف الدينية التي وفَّرت القاعدة المالية للتعليم، وأغلقت جميع المدارس القرآنية؛ مما أتاح التعليم في المدارس الفرنسية فقط، في الوقت الذي كان التعليم في SA يقترن بالتعليم الديني، وكانت المدارس تديرها مؤسسات دينية إسلامية كان فيها إحدى وسائل التعلم SA للأطفال هو حفظ القرآن، وفي نهاية المطاف انهار نظام التعليم القديم في الجزائر.

إذا درس المرء مستوى معرفة القراءة والكتابة قبل الاستعمار وبعده، فإن النتيجة ستكون مروعة إلى حد ما. وفقا لغوردون (١٩٧٨) كان مستوى محو الأمية بالعربية في بداية الاستعمار ٤٠-٥٠ ٪، وهذا بالتأكيد مرتفع في ذلك الوقت بالنظر إلى أن طرق التدريس كانت بدائية للغاية، ولم تكن الطباعة قيد الاستخدام. وفقًا لهولت، تدهورت الأمور بسرعة لدرجة أنه عندما غادر الفرنسيون الجزائر، كان ٩٠ في المئة من الجزائريين أميين (هولت، ١٩٩٤: ٢٨-٩).

في عام ١٨٤٧، يلخص ألكسيس دي توكفيل المحنة التي سبَّبها الفرنسيون للجزائريين في الاقتباس التالي:

المجتمع المسلم في إفريقيا لم يكن غير حضاري، كانت مجرد حضارة متخلفة وغير كاملة، هناك في داخلها عدد كبير من الأسس المتدينة، التي كان هدفها توفير احتياجات الصدقة أو التعليم العام. وضعنا أيدينا على هذه الإيرادات في كل مكان، وتحويلها جزئيًّا من استخداماتها السابقة. قمنا بتخفيض المؤسسات الخيرية والسماح للمدارس بالتحلل، وقمنا بحل المعاهد الدينية. (...) من حولنا تم إطفاء المعرفة، وتوقف توظيف رجال الدين ورجال القانون، وهذا يعني أننا جعلنا المجتمع المسلم أكثر بؤسًا وأكثر تشاؤمًا وأكثر جهلة وأكثر بربرية مما كان عليه قبل أن يعرفنا (Tocqueville 2001: 140-141).

من الواضح في الاقتباس أن المجتمع الجزائري عانى الأمرين بسبب سياسات فرنسا اللُّغوية.

بدأ الجزائريون في التأكيد على مشاعر القومية في النصف الأول من القرن العشرين، حيث ركَّزوا على التداعيات الإيجابية للفصحى، والتي كانت رد فعل مباشر للسياسات السياسية والاجتماعية والتعليمية الفرنسية. تحدث غالبية الجزائريين بالعامية الجزائرية العربية و/ أو البربرية. لجأ الجزائريون إلى دينهم وتاريخهم، ووجدوا تقليدًا عظيمًا في الإسلام والأعمال الأدبية الكلاسيكية. أصبح الدين والهوية الشخصية مرتبطين بالفصحى، على الرغم من أن الجزائريين كانوا في الغالب أميين، إلا أنهم كانوا لا يزالون عرضة للفصحى من خلال علماء المسلمين والقراءات القرآنية. بدأ الجزائريون كفاحهم مبكرًا وقبل استقلالهم. في عام ١٩٣١، قبل سبع سنوات من صدور مرسوم تقرِّر فيه فرنسا أنَّ اللُّغة العربية لغة أجنبية، شكَّل الجزائريون الرابطة الجزائرية التي أصبحت أقوى مدافع عن الثقافة العربية والإسلامية وعاملًا رئيسيًا للتعليم باللُّغة العربية.

في عام ١٩٣١، نُشِر كتاب أحمد مدني Tawfīq Madanī «كتاب الجزائر»، الذي أعلن فيه:› الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا ‹(Madanī 1931). وعَدَّ القوميين الفرنسيين رمزًا للاستعمار والظلم.

في عام ١٩٣٣ تم حظر الدعاة من الوعظ بالفصحى في المساجد، ثم بدأ الجزائريون في إنشاء نظام للمدارس الخاصة، وأصبح الدين رمزًا للوحدة الوطنية التي شملت البربر والعرب (هولت ١٩٩٤). على الرغم من ذلك، أعلن الفرنسيون أن اللُّغة العربية لغة أجنبية في مرسوم رسمي في عام ١٩٣٨ (Tigziri 2004).

ساعدت سياسة فرنسا في ضعف اللُّغة الفصحى، ولكنها لم تنجح في قمع الشعور بالهوية الوطنية التي كانت تتزايد يومًا بعد يوم. كان العاملان اللذان أدَّيا دورًا رئيسًا في هيمنة اللُّغة الفرنسية، حسب هولت (١٩٩٤)، الهجرة والتوسُّع العمراني، فمن عام ١٩١٤ إلى عام ١٩٥٤، كان هناك مليونا جزائري يعيشون في فرنسا، فالعامية العربية الجزائرية خلال هذه الفترة انتشرت بصورة شاسعة، وكان هناك أكثر من مليون فرنسي وإيطالي ومالطي يعيشون في الجزائر، وكان على الجزائريين أن يتفاعلوا معهم، وأن لغة التفاعل كانت عادة فرنسية (Sirles 1999).

بعد ١٣٢ سنة من القمع، وبعد سبع سنوات من الحرب الدامية مع الفرنسيين، حصلت الجزائر على استقلالها عن فرنسا في عام ١٩٦٢. عانت الجزائر من أشد آثار الاستعمار لغويًّا، ومع ذلك كانت من أكثر البلاد تحمُّسًا لتعريب العلوم، فحاليا تُدرِّس الجزائر العربية الفصحى لأطفال المدارس الابتدائية (كم ساعة) أسبوعيًّا. هذا الاهتمام بالفصحى دون غيرها من اللهجات واللُّغات نتاج سنوات من الاستعمار.

إن سنوات الاستعمار في العالم العربي أدَّت إلى التداعيات السلبية للغات الأجنبية- وخاصة الإنجليزية والفرنسية- كما هو واضح بعد استقلال الجزائر، حاولت الدولة حينها أن تتبع سياسة قاسية أيضًا في إلغاء استعمال اللُّغة الفرنسية إلغاءً تامًّا واستبدال العربية بها، ولكن هذه السياسة لم تكن ناجحة في البداية، وانقسم الشعب على نفسه في تطبيقها. ومع وجود المدارس الخاصة وانتشارها في العالم العربي أصبح دور الدولة في فرض سياسة لغوية ضعيفًا للغاية.

وأدَّت العولمة وانتشار وسائل الإعلام الرقمية إلى انتشار اللُّغة الإنجليزية حول الوطن العربي. ولكن فكرة وحدة اللُّغة والوطن أصبحت فكرة تستهوي الساسة في الوطن العربي، وخاصة لوجود فروق دينية وبعض الفروق الإثنية، فأصبحت وحدة اللُّغة أهمَّ وأسلم عامل للوحدة.

إذا اطلعنا على صفحة جامعة الدول العربية، فسنجد أن أحد المقومات الأساسية للانضمام للجامعة، هي كون اللُّغة العربية اللُّغة الرسمية للبلاد؛ لذا نجد أن دولة مثل جزر القمر أصبحت الآن دولة عربية؛ لأنها أعلنت أن اللُّغة العربية لغة رسمية، بالإضافة للغات أخرى. لذا فمقوِّمات تلك البلاد الأساسية هي كون اللُّغة العربية اللُّغة الرسمية للبلاد.

وقبل الختام أريد أن أعطي مثالًا أخيرًا يوضح رمزية تداعيات اللُّغة، والعلاقة المعقدة المتناقضة أحيانًا بين اللُّغة والمجتمع.

كما قلت- سابقًا- أصبح للغات الأجنبية دلالة سلبية مرتبطة بقمع الاستعمار، ولكن اللُّغات الأجنبية هي أيضًا وسيلة للتواصل الحضاري والتفوق الاقتصادي، ولكن التداعيات السلبية للغة الإنجليزية- مثلًا- موجودة في الأفلام العربية في مصر.

وسأتكلم عن فيلم معين رفضته الرقابة سنوات ثم خرج للسينما في مصر لاحقًا، وهو فيلم «لا مؤاخذة». الفيلم يتكلم عن طفل مسيحي من عائلة غنية، يموت والده بعد أن يفقد كل ثروته، فيضطر إلى الذهاب إلى مدرسة حكومية، والتعامل مع طبقة مختلفة من المصريين، ويقرر الطفل ألا يفصح عن هويته الدينية، فيظن الجميع أنه مسلم.

أهمية هذا هو في تأكيد الإعلام المصري مرَّة أخرى أن الدين ليس عاملًا في التغيُّر اللُّغوي كما هي الحال مثلًا في العراق، حيث أقرت حيضر في دراستها أن بغداد في الثمانينيات كان بها لهجة مسيحية ولهجة مسلمة، واللهجتان مختلفتان في التراكيب والمتغيرات الصوتية.

أما الأفلام المصرية فحاولت مرارًا أن توضح أن المسلمين والمسيحيين نسيج اجتماعي واحد كما هو واضح في اللُّغة. بغض النظر عن صحة هذا، تتطور أحداث الفيلم، ويشعر الطفل بالاضطهاد في مدرسته، فيقرر الهجرة، ويذهب إلى السفارة الكندية مع والدته، وتسأله الموظفة سؤالًا مباشرًا، ما إذا كان قد تعرَّض لاضطهاد ديني في مصر؟ وتسأل الموظفة المصرية السؤال بالإنجليزية، فيرد عليها الطفل متسائلًا بالإنجليزية أيضًا عن

سبب اختيارها للغة الإنجليزية مع أنها مصرية مثله. تندهش الموظفة من سؤاله، وتقول إن هذا جزء من عملها، فيوضِّح الطفل تفوقه اللُّغوي، ويصلح لها كلمة بالإنجليزية، ثم يرحل من مكتبها، ويقرِّر البقاء في مصر، وتأكيد هويته المصرية العربية.

Hani: ‘Are you Egyptian?’

Interviewer: ‘Yes.’

Hani: ‘So why do you speak to us in English and not Arabic?’

Interviewer: ‘It’s my job.’

أهمية هذا الحوار في كون الطفل قد شعر بأنه لو لجأ إلى وطن آخر، واعترف بعجز وطنه عن حمايته يصبح خائنًا لهويته، وهذا المعنى ضمني في تعليق الطفل على اللُّغة التي تستعملها الموظفة التي ليست هي لغتها الأم؛ مما يثير شَكَّه في نواياها.

فتبقى اللُّغة العامل الأول في التعبير عن الانتماء والهوية، وشرعية الهدفين السياسي والاجتماعي.

ختام:

في هذه الدراسة نحاول توضيح أهمية علم اللُّغة الاجتماعي في الوطن العربي، وكما قالت بسيوني في كتابها: نظريات وطرق الغرب في دراساته لا يمكن تطبيقها بحذافيرها على الوطن العربي دون تغيرها لتستوعب المجتمعات المختلفة في الوطن العربي والتحديات المختلفة أيضًا.

تتطرق هذا البحث لعدة نقاط، منها:

١. اللُّغة وارتباطها بالمكان، والعادات والتقاليد، والجنس، والنوع، والسن، إلخ... وكلُّ هذه المقومات الاجتماعية لابد أن تُوضع في إطار أيديولوجي مرتبط بالهوية والسياسة والتاريخ.
٢. النقاش حول ماهية اللُّغة وطرق جَمْع المادة العلمية، وأهمية هذا النقاش في تكوين هوية الفرد والمجتمع، وفي جمع مادة لا تتبع أهواء الباحث ولكن تعبر عن الواقع اللُّغوي للمجتمع.
٣. علماء اللُّغة الآن يجدون أن تقسيم المتغيرات إلى متغير لغوي وآخر اجتماعي غير مجدٍ على المدى الطويل؛ لأنَّ اللُّغة هي نسيج المجتمع، فهي متغير مجتمعي؛ لذا فلابد للباحث ألا يشرع في التقسيم العشوائي بين المقومات، بل يحاول ملاحظة ودراسة العادات اللُّغوية والاجتماعية من حوله ومحاولة فهمها دون تحيز.

وثمة جدل للعلماء الآن- منهم Heller - حول أن تقسيم المجتمع بهذه

الطريقة هو تقسيم غربي يعتمد على مقومات يتم تداولها في المجتمعات الغربية، ولا تعكس الصورة الصحيحة عن العالم وخاصة العالم العربي. ففكرة الأمة المبنية على أساس وحدة اللُّغة، فكرة غربية بدأت في القرن التاسع عشر في فرنسا وألمانيا، في حين أن الأمة الإسلامية هي كيان يمتاز باختلاف الألسنة والعادات والتقاليد، وحتى الرقعة الجغرافية والأحداث التاريخية. Bassiouney 2008, Miller 2003

٤. وختامًا توصي هذه الدراسة بإعادة النظر في العلم وفروعه ونظرياته في إطار سيطرة غربية مطلقة على الكثير من العلوم.

المراجع:

- عبود، غادة. ٢٠١١. «أنا إسكندرانية ضد الإرهاب». جريدة اليوم السابع. ٤ يناير ٢٠١١م، مسترجع من الرابط: https://www.youm7.com/News.asp?NewsID=330103,
- Abd-el-Jawad, Hassan R. "The Emergence of an Urban Dialect in the Jordanian Urban Centers." International Journal of the Sociology of Language 61, no. 1 (1986): 53–64.
- Abu-Haidar, Farida. Christian Arabic of Baghdad. Wiesbaden: Harrassowitz, 1991.
- Alexandre, Pierre. "Les Problèmes linguistiques africains vus de Paris." In Language in Africa, edited by John Spencer, 53–59. Cambridge: Cambridge University Press, 1963.
- Amara, Muhammad. Arabic in Israel: Language, Identity and Conflict. London: Routledge, 2017.
- Badawi, El-Said M. Mustawayāt al-ʻArabīyah al-muʻāṣirah fī Miṣr : baḥth fī ʻalāqat al-lughah bi-al-ḥaḍārah. al-Qāhirah: Dār al-Maʻārif, 1973.

- Baldauf, Richard B, and Robert B Kaplan. Language Planning and Policy in Africa. Vol. 2, Algeria, Côte d'Ivoire, Nigeria and Tunisia. Clevedon: Multilingual Matters, 2007.
- Bassiouney, Reem. Functions of Code-Switching in Egypt: Evidence from Monologues. Leiden: Brill, 2006.
- Bassiouney, Reem. Arabic sociolinguistics Edinburgh: Edinburgh University Press, 2009
- Bassiouney, Reem. Language and Identity in Modern Egypt. Edinburgh: Edinburgh University Press, 2014.
- Bateson, Mary Catherine. Arabic Language Handbook. Washington, D.C.: Center for Applied Linguistics, 1967.
- Blanc, Haim. "Style Variations in Arabic: A Sample of Interdialectal Conversation." In Contributions to Arabic linguistics, edited by Charles A. Ferguson, 81–156. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1960.
- Blom, Jan-Petter, and John J. Gumperz. "Social Meaning in Linguistic Structure: Code-Switching in Norway." In Directions in Sociolinguistics: The Ethnography of Communication, edited by John Joseph Gumperz, 407–34. New York: Holt, Rinehart, and Winston, 1972.
- Boussofara-Omar, Naima. "Diglossia." In Encyclopedia of Arabic Language and Linguistics, edited by Kees Versteegh, Mushira Eid, Alaa Elgibali, Manfred Woidich, and Andrzej Zaborski, I:629–36. Leiden: Brill, 2006.
- Britto, Francis. Diglossia: A Study of the Theory with Application to Tamil. Washington, DC: Georgetown University Press, 1986.
- Chumbow, Beban Sammy, and Augustin Simo Bobda. "The Life-

Cycle of Post-Imperial English in Cameroon." Contributions to the Sociology of Language 72 (1996): 401–430.

- Eckert, Penelope. "Communities of Practice." In Encyclopedia of Language & Linguistics, edited by Keith Brown, 683–85. Amsterdam: Elsevier, 2006.
- Eid, Mushira. "The Non-Randomness of Diglossic Variation in Arabic." Glossa 16, no. 1 (1982): 54–84.
- El-Hassan, Shahir A. "Educated Spoken Arabic in Egypt and the Levant: A Critical Review of Diglossia and Related Concepts." Archivum Linguisticum Leeds ٨, no. 2 (1977): 112–132.
- Fasold, Ralph. The Sociolinguistics of Society. Oxford: Blackwell, ١٩٩٥.
- Ferguson, Charles A. "Diglossia." Word ١٥, no. :(١٩٥٩) ٢ ٣٤٠–٣٢٥.
- Ferguson, Charles A. "Come Forth with a Surah Like It: Arabic as a Measure of Arab Society." Perspectives on Arabic Linguistics 1 (1990): 39–51.
- Ferguson, Charles A. "Diglossia revisited." In Understanding Arabic: Essays in Contemporary Arabic Linguistics in Honour of El-Said Badawi, edited by Alaa Elgibali, 49–67. Cairo: AUC Press, 1996.
- Fishman, Joshua A. "Bilingualism with and without Diglossia; Diglossia with and without Bilingualism." Journal of Social Issues 23, no. 2 (1967): 29–38.
- Fishman, Joshua A. "Endangered Minority Languages: Prospects for Sociolinguistic Research." International Journal on Multicultural Societies 4, no. 2 (2002): 270–275.

- Goffman, Erving. Forms of Talk. Oxford: Blackwell, 1981.
- Gordon, David C. The French Language and National Identity (1930-1975). The Hague: Mouton, 1978.
- Gumperz, John Joseph. “The Sociolinguistic Significance of Conversational Code Switching.” Papers on Language and Context (Working Paper 46). Berkeley: University of California, Language Behaviour Research Laboratory, 1976.
- Gumperz, John Joseph. Discourse Strategies. Cambridge: Cambridge University Press, 1982.
- Heller, Monica. Bilingualism: A Social Approach. Basingstoke: Palgrave Macmillan, 2007.
- Holt, Mike. “Algeria: Language, Nation and State.” In Arabic Sociolinguistics: Issues & Perspectives, edited by Yasir Suleiman, 25–41. Richmond: Curzon, 1994.
- Hopkins, Nicholas S., and Reem Saad (eds.). Upper Egypt: Identity and Change. Cairo: American University in Cairo Press, 2004.
- Ibrahim, Muhammad H. “Standard and Prestige Language: A Problem in Arabic Sociolinguistics.” Anthropological Linguistics 28, no. 1 (1986): 115–126.
- Labov, William. “Some Principles of Linguistic Methodology.” Language in Society 1, no. 1 (1972): 97–120.
- al-Madanī, Aḥmad Tawfīq. Kitāb al-Jazāʾir. Algiers: s.n., 1931.
- Meiseles, Gustav. “Educated Spoken Arabic and the Arabic Language Continuum.” Archivum Linguisticum 11, no. 2 (1980): 117–148.
- Mejdell, Gunvor. “Switching, Mixing–code Interaction in

Spoken Arabic." In Language Encounters across Time and Space, edited by Bernt Brendemoen, Elizabeth Lanza, and Else Ryen, ٢٤١–٢٢٥. Oslo: Novus, 1999.

- Mejdell, Gunvor. Mixed Styles in Spoken Arabic in Egypt: Somewhere between Order and Chaos. Leiden: Brill, 2006.
- Miller, Catherine. "Between Accommodation and Resistance: Upper Egyptian Migrants in Cairo.» Linguistics 43, no. 5 (2005): 903–956.
- Milroy, Lesley. Language and Social Networks. Oxford: Blackwell, 1987.
- Milroy, James, and Lesley Milroy. Authority in Language: Investigating Standard English. 4th ed. London: Routledge, 2012.
- Mitchell, Terence F. "What Is Educated Spoken Arabic?" International Journal of the Sociology of Language 61, no. 1 (1986): 7–32.
- Myers-Scotton, Carol. Social Motivations for Codeswitching: Evidence from Africa. Oxford: Clarendon Press, ١٩٩٣.
- Myers-Scotton, Carol. Codes and Consequences Choosing Linguistic Varieties. New York: Oxford University Press, ١٩٩٨.
- Myers-Scotton, Carol. Multiple Voices: An Introduction to Bilingualism. Malden: Blackwell, 2006.
- Ochs, Elinor. "Indexing Gender." In Rethinking Context: Language as an Interactive Phenomenon, edited by Alessandro Duranti and Charles Goodwin, ٥٨–٣٣٥. Cambridge: Cambridge University Press, ١٩٩٢.
- Palva, Heikki. "Patterns of Koineization in Modern Colloquial Arabic." Acta Orientalia 43 (1982): 13–32.

- Parkinson, D. “Verbal Features in Oral Fusha Performances in Cairo.” International Journal of the Sociology of Language 163 (2003): 27–41.
- Romaine, Suzanne. Bilingualism. Oxford; New York: Basil Blackwell, 1995.
- Ryding, Karin C. A Reference Grammar of Modern Standard Arabic. Cambridge: Cambridge University Press, 2005.
- Silverstein, Michael. “Indexical Order and the Dialectics of Sociolinguistic Life.” Language & Communication, Words and Beyond: Linguistic and Semiotic Studies of Sociocultural Order 23, no. 3 (July 1, 2003): 193–229. https://doi.org/10.1016/S0271-5309(03)00013-2.
- Sirles, Craig A. “Politics and Arabization: The Evolution of Post-Independence North Africa.” International Journal of the Sociology of Language 137(1999): 115–29.
- Stora, Benjamin. Algeria, 1830-2000: A Short History. Ithaca, NY: Cornell University Press, 2001.
- Suleiman, Yasir. A War of Words: Language and Conflict in the Middle East. Cambridge: Cambridge University Press, 2004.
- Tigrizi, Noura, “Les langues dans les constitutions algériennes.” Cahiers de l’ILSL 17(2004): 289–99.
- Tocqueville, Alexis de. Writings on Empire and Slavery, edited and translated by J. Pitts, Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2001.
- Walters, Keith. “Diglossia, Linguistic Variation, and Language Change in Arabic.” Perspectives on Arabic Linguistics 8 (1996): 157–197.

- Walters, Keith. “Fergie’s Prescience: The Changing Nature of Diglossia in Tunisia.” International Journal of the Sociology of Language, 2003.
- Wright, Sue. Language Policy and Language Planning: From Nationalism to Globalisation. New York: Palgrave Macmillan, 2004.

فهرس

انطلاقا من اهتمام مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، بدراسة أوضاع اللغة العربية وأحوالها، وتحقيقا للأهداف التي يتغياها المركز، وحرصا منه على تنويع مناشطه وفعالياته والشرائح المستهدفة، فقد أقر مجلس الأمناء في المركز برنامجاً علمياً تحت اسم: (برنامج المحاضرات العلمية) تُقَدّم من خلاله، محاضرات نوعية ومتميزة، وذلك باستقطاب علماء ومتخصصين في اللغة العربية من العرب وغيرهم.

ويهدف المركز من هذا البرنامج إلى تسليط الضوء على موضوعات لغوية مختارة، وعلى قضايا وإشكالات تمس الهوية اللغوية العربية، ومعالجتها بطرح علمي معاصر، للخروج بمشروعات علمية متنوعة تسهم في خدمة اللغة العربية، وتعزيز محلّها بين اللغات.

يقيم المركز تلك المحاضرات في أماكن متفرقة، وبالشراكة مع المؤسسات العلمية العريقة، ويدعو إلى الحضور المتخصصين في اللغة، والباحثين والمهتمين، وطلاب الدراسات العليا، كما يتضمن البرنامج إلى جانب المحاضرة حلقة نقاش متخصصة في اهتمام المحاضِر وتخصصه، ومسيرته العلمية، والآفاق البحثية التي رادها، والتي يوصي بارتيادها.

ويسرنا أن نضع بين أيديكم نص هذه المحاضرة، واثقين بأنكم ستجدون فيها وفرا علميا، ومفاتيح لمشروعات علمية وعملية.

الأمين العام

د. عبدالله بن صالح الوشمي





ص.ب ١٢٥٠٠ الرياض ١١٤٧٣
هاتف:٠٠٩٦٦١١٢٥٨٧٢٦٨ - ٠٠٩٦٦١١٢٥٨١٠٨٢
البريد الإليكتروني: nashr@kaica.org.sa


9 786038 221273